

نور وفتح

قراءة في فكر سعيد النورسي وفتح الله كولن



Copyright©2014 Dar al-Nile

جميع الحقوق محفوظة، لا يجوز إعادة إنتاج أي جزء من هذا الكتاب أو نقله بأي شكل أو بآية وسيلة، سواء كانت إلكترونية أو ميكانيكية، بما في ذلك التصوير الفوتوغرافي أو التسجيل أو وسائل تخزين المعلومات وأنظمة الاستعادة الأخرى بدون إذن كتابي من الناشر.

تصميم وغلاف:

مراد عرابجي

الترقيم الدولي: 4-668-315-975-978 ISBN

رقم النشر: 1013

دار النيل للطباعة والنشر

الإدارة: 22 جـ - جنوب الأكاديمية - التسعين الشمالي - التجمع الخامس - القاهرة الجديدة - مصر

Tel & Fax: 002 02 26134402

Mobile: 002 01000780841

E-mail: info@daralnil.com

www.daralnil.com

القاهرة 1436 هـ - 2014م

الطبعة الأولى

نور وفتح

قراءة في فكر سعيد النورسي وفتح الله كولن

عبد القادر الإدريسي

دار النينا



عبد القادر الإدريسي

ولد في عام ١٩٤٦ بمدينة تطوان (شمال المغرب).
درس في تطوان والرباط والقاهرة وبنغازي، وحصل على دراسات معمقة
في اللغة العربية وآدابها، والقانون الدولي، والصحافة والإعلام، والدراسات
الإسلامية.

عمل في الصحافة منذ سنة ١٩٦٧، في جريدة (العلم) المغربية، وجريدة
(الأنباء) المغربية، وجريدة (الصحراء) المغربية، وجريدة (الحقيقة) الليبية،
وجريدة (الزمان) الليبية، ومجلة (المجتمع) الكويتية، وجريدة (الشهاب)
اللبنانية، وجريدة (عكاظ) السعودية، وفي غيرها من الجرائد.
عمل رئيس تحرير لمجلة "دعوة الحق" الشهرية الصادرة عن وزارة الأوقاف
والشؤون الإسلامية بالمغرب (١٩٧٦-١٩٨٧)، ورئيس تحرير لجريدة "الرسالة"
الأسبوعية الإسلامية (١٩٨١-١٩٨٧).

التحق بالمنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة -إيسيسكو- في ١٩٨٧
موظفًا في مديرية الثقافة، ثم عمل مسؤولاً للإعلام ما بين (١٩٩١-٢٠١٠).
وتولى في سنة ١٩٩٤ رئاسة تحرير مجلة "الإسلام اليوم" الأكاديمية المحكّمة
الصادرة بالعربية والإنجليزية والفرنسية عن الإيسيسكو، ولا يزال يقوم بهذه
المهمة.

شارك ببحوث فكرية وأوراق علمية في مؤتمرات وندوات إسلامية في عديد
من العواصم العربية والإسلامية. وهو كاتب وباحث ومؤلف، له ثمانية عشر
كتابًا في قضايا العالم الإسلامي، وشؤون الفكر والثقافة والتاريخ والحضارة،
والحوار بين الثقافات. يكتب مقالاً أسبوعيًا في جريدة "العلم" المغربية بصورة
منتظمة منذ سنوات عديدة.

متزوج وله ابن وبتان وستة أحفاد.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

فَهْرِسْتَنْ

٧	تقديم
١١	مقدمة المؤلف

الفصل الأول:

نور فاتح

٢٣	جماعة النور.. خدام القرآن
٢٨	إشارات الإعجاز في مظان الإيجاز
٣٣	فيوضات نورية في آيات قرآنية
٣٨	نفحات قرآنية وفتوحات ربانية
٤٤	في البحث عن مصادر الحكمة في تركيا اليوم
٥٢	بديع الزمان النورسي يبشر بالمستقبل
٥٧	سعيد النورسي يخاطب العصر بخمسين لغة

الفصل الثاني:

فتح منير

- ٦٧.....اعتذار إلى محمد فتح الله كولن
- ٧٦.....محمد فتح الله كولن.. الرجل الظاهرة
- ٨٣.....ماذا لو عمل العرب بأفكار محمد فتح الله كولن؟
- ٩١.....فتح الله كولن في جامعة محمد الخامس
- ٩٨.....رؤية أمريكية في محاورات حضارية.. حول فلسفة تغيير الإنسان
- ١٠٤.....مدارس الغد وجامعات المستقبل
- ١١٢.....نفحات قرآنية من نسيمات تركية
- ١١٨.....قراءة إيمانية جديدة للقرآن الكريم
- ١٢٣.....تأملات وجدانية في آيات قرآنية
- ١٣٠.....أنوار القرآن تضيء العقل والوجدان
- ١٣٦.....الرقائق التركية في التلال الزمردية.. نحو حياة القلب والروح
- نفحات روحية تهب من تلال تركية:
- ١٤٣.....في مقامات الإخلاص والصبر والرضا والمحبة
- ١٥١.....ما حقيقة حركة محمد فتح الله كولن؟
- ١٥٨.....فتح الله كولن يترجم أفكار سعيد النورسي
- فتح الله كولن..
- ١٦٦.....المفكر وداعية الحوار والسلام الذي يواجه العاصفة



تقديم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، سيدنا محمد بن عبد الله النبي الأمي الأمين، وعلى آله وصحبه الأطهار الطيبين.

أما بعد..

فلا يخفى أن المبادرات والمشاريع التي تستهدف مقاصد سامية، وغايات كلية، تسمو بالأجيال من حال إلى حال، وترقى بهم من درجة إلى أخرى، وتشحذهم وتصقلهم من خلال ضخّ عارم الشوق إلى تحقيقها في كياناتهم، وتشريبهم قيمها ومثلها، حتى تصهرهم في بوتقتها، فيصيروا أمة واحدة، موحّدة وموحّدة في أهدافها.

ولا شك أن أصحاب المشاريع الكبرى إذا وفقوا -وهم ينجزون مشاريعهم- في أن يحيطوها بأنوار الرسالة الربانية، ونفحاتها النورانية المستمدة من نور القرآن الكريم وهدى خير العباد نبي الرحمة ﷺ، فسوف يستدرج المنخروطون فيها من جرّاء ذلك، بين جوانبهم أضرب الحكمة التي تنتج الحركة الحكيمة المتزنة، وتؤدي إلى الإنجاز التكاملي، فيرتقوا إلى موقع التعقّل والمقصدية، بما يصل الأمة بجذورها الروحية ويُحكّم صلتها بأصولها الوجدانية في حاضرها ومستقبلها.

والكتاب الذي أسعد اليوم بتقديمه إلى جمهور القراء، يشكّل رحلة

إلى آفاق الإشراق الوجداني والفكري، والإبهار الجمالي، في كتابات هَرَمَيْن من أهرام الفكر والدعوة في العصر الحديث؛ ممن يحملون في طواياهم هموم الأمة وأمانيتها، في يومها وغدها؛ صاحب الكليات، الأستاذ بديع الزمان سعيد النورسي رحمه الله، وصاحب "النور الخالد: محمد ﷺ مفخرة الإنسانية"، الأستاذ محمد فتح الله كولن (هُوجَا أَفَنَدِي) حفظه الله. وهما مجدّدان وُفِّقا إلى حدّ بعيد في إحاطة مشروعيهما بأنوار الرسالة الربّانية، ونفحاتها النورانية، ممّا كانت له آثاره البارزة على أرض الواقع. وتكمن قيمة الكتاب الذي اختار له مؤلفه؛ الأستاذ عبد القادر الإدريسي، عنوان "نور وفتح: قراءة في فكر سعيد النورسي وفتح الله كولن" في قدرة صاحبه على النفاذ إلى مظان أفكار الرجلين وامتداداتها في جوانب شتى؛ حيث قام بجولة رائقة في كليات رسائل النور، وقام باستعراض موفق لأهم ما حوته كتب الأستاذ فتح الله كولن، مما جعل الكتاب غنيّاً بتوجيهاتٍ وإلماعاتٍ مفيدة، من شأنها أن تغني حياة القراء وتملأها بفاعلية وحركية غاية في الوظيفة.

والكتاب في أصله مقالات سبق للمؤلف أن نشرها في منابر إعلامية مختلفة، وفي أوقات متباعدة، اختار لها عناوين مشرقة، وأودع فيها ومضات من بعض ما انقذ في خاطره الكريم، من أفكار حول الجذور الفكرية، والامتدادات العلمية لفكر بديع الزمان، وقبسات والتماعات من سيرة الأستاذ فتح الله كولن وجهوده.

ولا شك أن هذه المباحث، سوف تجد لها صدى مباركاً لدى الباحثين المعنيين بشؤون الإسلام وقضاياها في العالم، ولعل القيمة المضافة الأبرز، التي يمكن أن يلمسها قارئ هذا السفر، تكمن في إبراز عوالم فكر الأستاذ

سعيد النورسي، والغوص في فكر الأستاذ فتح الله كولن، وفق أسلوب ميسر؛ كما تكمن في التمكين من استكشاف عالم أفكارهما المستنير بنور القرآن ونفحاته، والمضيء للعقل والوجدان، والمولّد لمنهجية فريدة في حركة الأفراد والجماعات.

وإنني إذ أهني الأستاذ عبد القادر الإدريسي على هذا العمل المبارك، لأدعو العليّ القدير أن يجزيه خير الجزاء على مؤلفه هذا، وأن ينفع به. آمين، والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

الدكتور أحمد عبادي

الأمين العام للرابطة المحمدية للعلماء / الرباط





مقدمة المؤلف

تعود صلتي برسائل النور إلى منتصف الستينيات من القرن الماضي. في فترة الدراسة الثانوية في تطوان كنت أصلي الجمعة في مسجد الباشا بالمشور، متأثراً بالخطيب الدكتور عبد السلام الهزاس، الذي كنت أحرص على الاقتراب منه بعد انتهاء الصلاة، للسلام عليه، وأغتني المناسبة لأسير إلى جنبه من باب المسجد إلى بداية ساحة الفدان، وهي مسافة تقل عن مائة متر، كنت أقطعها معه أستمع إليه وأتزود منه. وفي أحيان كثيرة كان يرافقنا بعض الأفراد ممن كانوا يواظبون على الصلاة في هذا المسجد، ويجدون راحتهم في الاستماع إلى خطبة الجمعة التي كان الخطيب فيها ينفرد عن غيره من الخطباء في مساجد المدينة، لأنه كان يرتجل ولا يقرأ من ورقة، وكان يلقي الخطبة بطريقة حديثة لم تكن مألوفة في بيئتنا، فضلاً عن أنه كان يتناول موضوعات من صميم الحياة تهّم جميع فئات المجتمع.

خلال تلك الدقائق المعدودات التي كنت أسير فيها إلى جنب الدكتور عبد السلام الهزاس، الذي تخرّج في دار العلوم في القاهرة وكان يدرّس عهدئذ في إحدى ثانويات المدينة، تعرفت على شخصيتين مهمّتين، هما محمد قطب، وسعيد النورسي.. فقد نصحني ذات يوم بقراءة كتاب "شبهات حول الإسلام" للأول، ولما جئته في الجمعة التالية سعيدياً أخبرته

أنني قرأت الكتاب وأعجبت به وشدّني إليه، فنصحتني بقراءة "رسائل النور" التي ترجمها الشيخ محمد سعيد رمضان البوطي. وكنت أتردد على مكتبة الناصر في شارع محمد الخامس التي كانت بمثابة منتدى ثقافي لأساتذتنا ولنا، حيث كنا نجد مثل هذه الكتب. فلما سألت عبد الله الناصر (أحد المسؤولين في المكتبة) عن رسائل النور، ناولني كتيباً صغيراً صدر في طبعة بسيطة عن إحدى مطابع دمشق، وهو يقول: "هل نصحك الدكتور الهراس بقراءة هذا الكتاب؟". فبادرتُ إلى استفساره قبل الرد على سؤاله: كيف عرفت؟! فكان جوابه: ألم ينصحك في الأسبوع الماضي بقراءة كتاب محمد قطب؟!

تلك كانت بدايتي مع عدد محدود من رسائل النور، والفضل في ذلك يعود -بعد هداية الله تعالى- إلى الدكتور عبد السلام الهراس الذي كنّا ونحن فتیان مشغوفون بالقراءة إلى حد الهوس، نجد فيه نعم الناصح الموجه المرشد بدماثة خلقه ورهافة لطفه وجميل لباقة، في غير ما تزمّت أو تشدد. وكذلك كنا نلتقي بالأستاذ محمد بوحبزة، ونأوي إليه ونلتفّ حوله تلامذة يبحثون قدر الإمكان عن مصادر المعرفة، لنقتطف من علمه الغزير، ونقتبس من ثقافته الواسعة، ولنستفيد من مكتبته الكبيرة في بيته. وقد استمعت إليه ذات يوم وهو يتحدث عن رسائل النور حديث العارف المحب المقدر لقيمة تلك الرسائل ولمكانة كاتبها.

ولكن رسائل النور لم تكن متاحة لنا في تلك الفترة، ولم تكن نقرأ عنها فيما كنا نقرأ من كتب أو مجلات ترد إلينا من الشرق. فقد كان اسم "بديع الزمان سعيد النورسي" غائبا عن الحياة الثقافية، وعن الوسط العلمي، وعن الصحافة الإسلامية التي كنا نحرص على متابعتها.

ومضت سنوات طويلة قبل أن يقع بين يدي كتاب جميل للأستاذ إحسان قاسم الصالحي في ترجمة صاحب رسائل النور. حدث ذلك في مطلع الثمانينيات من القرن الماضي. فكان هذا الكتاب الشراة التي أشعلت في جوانحي جذوة الشوق إلى رسائل النور. ثم انفرط عقد من الزمان قبل أن ألقى بغيتي وأحصل على مجلدين من كليات رسائل النور، لأدخل عالم بديع الزمان قارئاً نهماً ومريداً عاشقاً متيماً. ثم وجدتني متلهفاً أبحث عن المجلدات التي تنقصني من المجموعة، حتى وقعتُ عليها، فأقبلت على قراءتها مجلداً إثر مجلد، فإذا بأبواب النور تنفتح ليغمرنني شعاعه، وإذا بأفاق واسعة تمتد أمام ناظري لأرتادها، وإذا بي أهتف: "عذراً سعيد النورسي، ما عرفتك إلا أخيراً".

ومنذ ذلك الحين وأنا أحرص ما أكون على التماس كل وسيلة تزيدني قرباً من رسائل النور. وكان الدكتور محمد عمارة -الصديق الحبيب- وسيلة لي للدخول إلى عالم الفكر المستنير برسائل النور. ففي إحدى زياراتي له في بيته في القاهرة، حدثني عن رحلة فكرية وروحية قام بها إلى تركيا، أتاحت له الفرصة للتعرف على آثار بديع الزمان سعيد النورسي على أرض الواقع، وعاد من رحلته تلك معجباً بما رأى، مشيداً بمن التقى بهم من تلامذة النورسي ومن خدام رسائل النور. وتحت تأثير ما استمعت إليه من المفكر العالم المجدد المبدع، قرّرتُ أن أزور إسطنبول، وكان أول ما قمت به في صبيحة ذات يوم أني سعيْتُ إلى اللقاء بالأستاذ إحسان قاسم الصالحي الذي فتح لي الباب إلى عالم النور من خلال ترجمته الصافية الوافية الرائقة الراقية لكليات رسائل النور.

ومن خلال الأستاذ إحسان قاسم الصالحي، تعرّفت على الأستاذ

الزميل نوزاد صواش المشرف على مجلة "حراء"، التي كنت قد سمعت عنها لأول مرة من الدكتور محمد عمارة. فكانت ثمرة هذه المعرفة أن تيسرت لي الأسباب لقراءة مقالات للأستاذ محمد فتح الله كولن نشرها افتتاحياتٍ لمجلة "حراء" من موقعها على الإنترنت. وكان هذا أول عهدي بهذا المفكر المربي المجدد صاحب المشروع الحضاري، الذي هو الترجمة العملية التنفيذية لرسائل سعيد النورسي، وكان أول كتاب يقع بين يدي من مؤلفاته هو كتابه "النور الخالد: محمد ﷺ.. مفخرة الإنسانية"^(١) الذي صدر في مجلد كبير، والذي كان لي بمثابة المدخل إلى عالم من الإشراق الفكري والإبهار الجمالي في كتابات هذا المفكر الفذ الذي لم أكن أعرفه من قبل ولا كنت قد سمعتُ باسمه. وتلك هي الآفة التي ظللنا نعاني منها زمناً طويلاً، والتي تتمثل في الحواجز التي كانت تفصل بين العرب وبين أشقائهم الأتراك، فتُحجب الأفكار النيرة التي أنتجتها عقول تركية مؤمنة بدينها ومخلصة لأمتها، وفي الطليعة منها أفكار سعيد النورسي ومحمد فتح الله كولن، قبل أن تترجم رسائل سعيد النورسي ومؤلفات محمد فتح الله كولن إلى اللغة العربية، وتبدأ تصل إلى البلدان العربية.

وأشهد أنني أقبلتُ على قراءة مجموعة من مؤلفات محمد فتح الله كولن حصلتُ عليها في مكتبات الرباط وإسطنبول والقاهرة، بنهم شديد، وكأني كنت أعوِّض عن السنوات التي ضاعت مني قبل أن أكتشف هذا العالم المُنهر المشرق. فكان من فضل الله عليَّ أني أصبحتُ تلميذاً في

(١) النور الخالد: محمد ﷺ.. مفخرة الإنسانية، فتح الله كولن، دار النيل، القاهرة ٢٠٠٦.

مدرسةٍ مديرتها بديع الزمان سعيد النورسي ووكيلها محمد فتح الله كولن، وهي "مدرسة النور" الذي ينفذ إلى الأعماق فيفتح مغاليق العقل والنفس والوجدان، وينير سبل السلام الروحي والعقلي والنفسي أمام الإنسان.

لقد نشأت على القراءة في الكتب الإسلامية من مختلف المدارس الفكرية. وولدت في بيت كانت فيه كتب لبعض من أعلام الفكر والعلم والثقافة الإسلامية. وأذكر أنني قرأت كتاب الشيخ محمد عبده "الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية" في فترة مبكرة جداً، وقرأت كتاب شكيب أرسلان "لماذا تأخر المسلمون وتقدم غيرهم" وأنا دون السادسة عشرة من عمري. وكان الكتابان من محتويات مكتبة الوالد. ونظرت في مجلدين من تاريخ ابن خلدون كانا في بيتنا، قبل أن أنصرف إلى القراءة في مؤلفات مصطفى صادق الرافعي، وعبّاس محمود العقاد، والدكتور طه حسين، وأحمد حسن الزيات، ومحمود تيمور، وزكي مبارك، وأحمد أمين، وغيرهم. وكانت تلك مرحلة من حياتي سابقة للمرحلة التي انصرفت فيها إلى القراءة في كتب حسن البنا، ومحمد الغزالي، وسيد قطب، ومحمد قطب، والبهي الخولي، والسيد سابق، وأبي الحسن على الحسيني الندوي، وأبي الأعلى المودودي، وخالد محمد خالد، وعبد الله كنون، وعلال الفاسي، وأبي بكر القادري، ومحمد الحجوي، والبشير الإبراهيمي، وشكيب أرسلان، وحسين الجسر، وعبد الحميد بن باديس، وأحمد الشرباصي، ومحمود شلتوت، وأنور الجندي الذي أعده أستاذاً لي ربّطني به رسائل التواصل قبل أن أنتقل من تطوان إلى الرباط، وقبل أن أزور القاهرة وألتقي به في بيته لأول مرة في يناير سنة ١٩٦٩م. ولم أعر خلال تلك المرحلة -سواء في الفترة الأولى منها أو في الفترة الثانية-

على اسم بديع الزمان سعيد النورسي، ولو على سبيل التلميح أو الإشارة العابرة إليه في كتاب أو مجلة أو جريدة، ولا استمعتُ إلى هذا الاسم من أفواه الرجال الذين التقيتُ بهم وتعرفت عليهم من الكتاب والصحافيين والعلماء والمفكرين وأساتذة الجامعة.

وقمتُ في مرحلة لاحقة بمراجعة لمجموعة من الدوريات المصرية القديمة مثل "الرسالة" و"الثقافة" و"الهلال" و"نور الإسلام" -التي هي مجلة الأزهر- ومجلة "التمدن الإسلامي" الدمشقية. إذ كنت مشغولاً بزيارة دار الكتب في القاهرة، والمكتبة الظاهرية في دمشق، والمكتبة العامة في الرباط، والمكتبة العامة في تطوان، ومكتبة معهد مولاي الحسن ابن المهدي في تطوان أيضاً، حيث كنت أقرأ هنا وهناك، وأتصفح وأطلع على عناوين المقالات وأراجع الصفحات المخصصة للأخبار الثقافية عن الكتب الجديدة، فما صادفتُ اسم بديع الزمان سعيد النورسي. وأحتفظ اليوم في مكتبي الخاصة بالفهارس الكاملة لمجلة "الرسالة" لصاحبها أحمد حسن الزيّات التي صدرت عن دار الكتب المصرية في خمسة مجلدات، وقد راجعتها صفحة صفحة، فما وجدتُ فيها ذكراً لصاحب "رسائل النور". وكنتُ -ولا أزال- مهتماً بالاطلاع على كتب التراجم للأعلام المعاصرين من عصر النهضة وإلى اليوم. قرأت منها طائفة، وفي مكتبي عدد من أمهاتها. وليس فيها ذكر لبديع الزمان سعيد النورسي، ولا إشارة إلى رسائل النور.

ولذلك كانت مفاجأة لي هزّت كياني حين تعرفتُ على الأستاذ سعيد النورسي في سنة ١٩٦٥م، في كتيب صغير يضمّ ترجمات لعدد محدود من رسائله. ثم انقطعْتُ صلتني برسائل النور، إلى أن تهَيَّأت لي الأسباب

لقراءة ترجمة لبديع الزمان حرّرها الأستاذ إحسان قاسم الصالحي، قبل أن أقرأ المجموعة الكاملة من هذه الرسائل في مجلداتها التسعة مرتين، في طبعتها الأولى، ثم في طبعتها الثانية، لأقف على عبّة عالم بديع الزمان المشرق المبهر، وأبدأ رويداً رويداً في الدخول إلى فضاءاته الرحبة، حيث وجدت ما لم أجده في العوالم الأخرى التي عشت فيها سنوات من عمري، وألفت نفسي أمام نمط فريد من الفكر، ومن الفهم، ومن التذوق، ومن التعمق في استخراج معاني القرآن الكريم، ومن الغوص في بحار من الخواطر والمعاني والتفسيرات والشروح التي هي نفحات ربانية وإشراقات نورية.

وليس يعني هذا أنني لم أجد بغيتي في قراءاتي السابقة، أو لم أفد منها، أو لم أخرج بمنافع عقلية وفوائد ثقافية وفرائد علمية، أو لم أغنم من تلك الرحلة الطويلة زاداً روحياً. فقد أكرمني الله بالاقتراب من تلك العوالم المشرقة، وبالاندماج العقلي فيما قرأته من مؤلفات لتلك الصفوة من أعلام الفكر والعلم والأدب والثقافة، وبالانسجام الروحي معهم، حتى صرت أنسب نفسي إلى تلك المدرسة الفكرية. ولكن الأمانة والصدق مع النفس، يقتضيان مني أن أعترف أن الأثر الذي خلّفته في نفسي كليات رسائل النور، أحدث هزة روحية في جوانحي، وأثار أمامي معالم الطريق بالكشافات القوية التي تستمد قوتها منها.

وكذلك كان شأني مع الأستاذ محمد فتح الله كولن الذي هو التلميذ الروحي للأستاذ بديع الزمان سعيد النورسي، وهو المترجم العملي لأفكاره التي عبّر عنها في رسائل النور. فلقد هيأ الله ﷺ لهذه الدعوة من انتقل بها من طور التنظير والتفكير والتأليف ونشرها في رسائل عمت

الآفاق، إلى طور التنفيذ العملي والتطبيق المادي في واقع الناس على عديد من المستويات. ولذلك فإنني لا أفصل بين الرجلين المصلحين المجديدين النورسي وكولن، فهما معاً، كما أحب أن أقول "نور وفتح"؛ نورٌ شعشع في ليل مظلم كالح السواد، وتفجّر من قلب رجل لم يكن يملك من حطام الدنيا شيئاً، ولا وسيلة له إلا إيمانه الراسخ الثابت الذي يملأ أقطار نفسه، ولا سلاح له إلا فكره الثاقب النير وبصيرته المستنيرة بالقرآن.

إن هذه الترجمة الأمانة والواقعية والعملية للأفكار التي بشر بها بديع الزمان سعيد النورسي في رسائله الجامعة للفضائل والمشرقة بالأنوار، تتجلى في الحركة المباركة الشاملة التي انبثقت من فكر محمد فتح الله كولن فكانت نهضة حضارية قام بإرساء قواعدها على مراحل متعاقبة، وتعهدها بحكمته وتبصره وحسن تصرفه، ورعاها بفضته ويقظته ومعرفته بأحوال العصر وبظروف المحيط الذي انطلق منه، حتى أتت أكلها وأخرجت ثمارها، وأشعت أنوارها لتعم أقطاراً كثيرة في مشارق الأرض ومغاربها، في تجربة فذة رائدة ناجحة غير معهودة، هي مثالٌ حيٌّ للعمل الذي ينفع الناس ويمكث في الأرض.

لقد جمع الأستاذ محمد فتح الله كولن بين النور والفتح، بين الإيمان والعمل، بين الفكرة البانية وبين الممارسة الحكيمة، حتى أقام هذا الصرح الشامخ الذي ارتفعت مناراته في بلده تركيا، فامتدت أنواره إلى الآفاق البعيدة.

وإذا كانت معرفتي بالأستاذ محمد فتح الله كولن تعود إلى قراءتي في بعض من مؤلفاته المترجمة إلى اللغة العربية، وفي المقالات الافتتاحية

التي يكتبها لمجلة "حراء"، فإن ما سمعته عنه من بعض تلامذته المقربين منه في إسطنبول، وما علمته منهم من إنجازات له متعددة المجالات لا تحصر في مجال دون آخر، وما قرأته في الكتاب الممتع الرائع الذي أصدره عنه الدكتور فريد الأنصاري^(٢) المرحوم، جعلني قريباً -على نحو ما- من عالم هذا المفكر المجدد الباني للنهضة الحضارية في بلاده، والساعي في إخلاص عظيم إلى مدّ آثار هذه النهضة إلى بلدان كثيرة، من خلال هذه السلسلة من المدارس الراقية المتميزة الفريدة من نوعها، التي تغطي مناطق شتى من العالم، والتي هي منارات للعلم وللمعرفة وللهداية إلى الحق والفضيلة والخير ولسموّ الروح وعلوّ الهمة وتهذيب النفس بأرقى معاني التهذيب التربوي.

وكما سبق مني القول: "عذراً سعيد النورسي، ما عرفتك إلا أخيراً"، فإنني أقول لهذا المفكر المصلح المجدد: "عذراً فتح الله كولن، ما عرفتك إلا أخيراً".

لقد قرأت للأستاذ محمد فتح الله كولن كتباً هي نمطٌ فريدٌ من الفكر الإسلامي الباني للعقل وللوجدان بمنهج فريد أيضاً يختلف عن المناهج لدى غيره من المؤلفين والمفكرين؛ هي كتب قيمة ذات طعم لذيق يفتح شهية التفكير في حاضر أمتنا وفي مستقبلها. وكلما أوغلت في سبر أغوار هذا الفكر، أجدني أمام بديع الزمان سعيد النورسي، وإن اختلف الأسلوب والأداء؛ فالرجلان يمتحان من معين واحد، ويستمدان الأنوار من مشكاة واحدة؛ فهما -كما أسلفت- "نور وفتح"، نور يعقبه فتح للقلوب وللعقول

^(٢) عودة الفرسان: سيرة محمد فتح الله كولن، فريد الأنصاري، دار النيل، القاهرة ٢٠١٠.

ولأبواب الحياة الراقية بالإيمان وبالعمل وبالعلم.
وفي هذا الكتاب قبسات من هذا "النور الفاتح"، وومضات من هذا
الفتح المنير.
والله الموفق، والحمد لله.

عبد القادر الإدريسي





الفصل الأول:
نور فاتح



جماعة النور.. خدام القرآن

يحار المرء في اختيار تسمية لأتباع الأستاذ سعيد النورسي، العالم المفكر العارف بالله الذي اشتهر بلقب "بديع الزمان"، لأنه كان حقاً بديع زمانه في الفطنة والذكاء وقوة الحافظة، وفي التأثير العميق الذي أحدثه في محيطه القريب والبعيد، في المجتمع التركي، وفي مناطق شتى من العالم الإسلامي، وفي خارج العالم الإسلامي. فهؤلاء الذين يدينون بالولاء الإيماني والوجداني والعقلي لهذا الرجل الفذ الذي لم يكن له نظير، لا في عصره -طوال النصف الأول من القرن العشرين- ولا في هذا العصر يأبون أن يُوصفوا بأنهم "أتباع" أو "تلامذة" أو "مريدون" لسعيد النورسي، وإنما يصفون أنفسهم بأنهم "خدام القرآن"، أو بعبارة أخرى "خدام رسائل النور"، وهي سلسلة من الرسائل في شكل كتيبات صغيرة، تكاد تبلغ مائة وثلاثين رسالة كتبها سعيد النورسي، وتتناول قضايا الإيمان ودراسة القرآن والسنة والسيرة النبوية، وتضم توجيهات ونصائح ومواعظ وتأمّلات وتجليات تنصبّ على تعميق الإيمان بالله وترسيخ أركانه وتطهير العقيدة من الشوائب وتنقية الإخلاص لربّ العالمين، ومحاربة الإلحاد ودحض شبهاته، وتقوية الإيمان بنبوة رسول الله محمد عليه الصلاة والسلام، وبربانية القرآن وبإعجازه وخلوده، والتحلي بمكارم الأخلاق التي تزكي النفوس وتطهرها من الأدران والأسقام والأمراض والأهواء.

إذا اجتمعت بهم وتحديث إليهم علمت أنهم فئة من البشر ينفردون بصفات ومزايا وسجايا استمدوها من تعاليم سعيد النورسي المبنية في رسائل النور التي هي نمط من الكتابات الدينية لا أجد له مثيلاً في المكتبة الإسلامية المعاصرة. قومٌ يسطع النور من وجوههم، وتخرج الحكمة من أفواههم، ويستمث المثل الرفيع للتقوى والاستقامة والورع والإيمان الصادق والعمل الصالح من سلوكياتهم ومعاملاتهم. فهم نماذج ناطقة بما للإيمان من قوة تأثير في صنع الرجال والحفاظ على هويته وثوابته، بعيداً عن صخب الشعارات اللامعة وضجة العناوين البراقة ورنين الأدبيات الإنشائية التي لا تمكث في الأرض ولا تنفع الناس. هم نماذج بشرية صنعهم الإيمان بالقرآن كتاباً هادياً، وبالرسول الكريم محمد ﷺ بشيراً، وبالإسلام ديناً قيماً ينير الطريق أمام الإنسان ليكتسب السعادة في دنياه وأخراه. أثر فيهم سعيد النورسي، فأحبوه وأنزلوه من أنفسهم منزلة المعلم المرابي المصلح القدوة الذي يثقون فيه، ويقتدون به، ويطمئنون إليه، ويعتمدون عليه في معرفة الطريق إلى الله، عن يقين وإيمان، ووعي وفطنة، وحكمة ورشاد، وعلم وفهم.

أعرف أن حديثي هذا عن "جماعة النور" في تركيا ربما يرى فيه بعض القراء مبالغة في الوصف وغلو في الرأي. ولكنني على يقين ثابت بأن ما أكتبه عن هذه الجماعة، يعبر بصدق وإخلاص وتجرد، عن الواقع المعيش اليوم في تركيا الذي يختلف عما نعرف في العالم العربي -وربما قلت في العالم الإسلامي عامة- اختلافاً بيناً جديراً بأن يكون موضع دراسة وتأمل واعتبار. فهذه الجماعة التي تلتفت حول "رسائل النور" وتتخذ منها نبأاً في حياتها، هي نسيج وحدها حقيقة لا مجازاً.

إن مَنْ يقرأ بعمق مجموعة "رسائل النور"^(٣) (التي ترجمها إلى اللغة العربية الأستاذ إحسان قاسم الصالحي في تسعة مجلدات كبيرة أضاف إليها مجلداً عاشراً عن سيرة سعيد النورسي المستقاة من رسائله وممن أكرمهم الله بالاقتراب منه في حياته والتعرف عليه مباشرة) يخرج بانطباع قوي بأنها نمط من الكتابات الإسلامية غير معروف في المكتبة العربية القديمة والحديثة والمعاصرة. وأشهد وأعترف بأنني فوجئت بروعة شخصية سعيد النورسي وببهاؤها وإشراقاتها ونفحاتها، وذهلت وانبهت بآثارها الفكرية التي تكشف عن عبقرية فذة فريدة، وتعبّر عن اتجاه في التفكير والتأصيل والتأليف لا عهد لي به على كثرة ما قرأت من كتب التراث ومن المؤلفات المعاصرة في هذا الحقل مما أحمد الله عليه.

إن روح "رسائل النور" تنعكس على هذه الجماعة التي حرت في اختيار الاسم الذي أطلقه عليها، لعلمي أن أفرادها، على اختلاف في مستوياتهم الثقافية، لا يقبلون أن ينعتوا بأنهم "جماعة"، أو أنهم "جمعية"، أو أنهم "مؤسسة"، أو أنهم "تنظيم"، أو أنهم "حزب". فكل هذه الأسماء والأوصاف والتشكيلات لا تنطبق عليهم، ويرفضون أن يصنّفوا ضمنها. ولهم الحق، فليسوا هم ممن يندرج في هذا الإطار، لأنهم قوم يختلفون عن النماذج والأنماط التي نعرفها.

ولكن "خدام رسائل النور" -وهذه هي التسمية التي يُطلقونها على أنفسهم- لهم مؤسّساتهم الثقافية، ومراكزهم البحثية، ومدارسهم الدينية، ومشروعاتهم الاقتصادية، وقنواتهم التلفزيونية، ومحطّاتهم الإذاعية،

(٣) كليات رسائل النور، سعيد النورسي، دار النيل، القاهرة ٢٠١٠.

ومنابرهم الصحافية.. ولهم حضور مكثف ومتشعب في الحياة التركية، في إطار الاحترام الكامل للقوانين السائدة وضوابط النظام العام، بدون أن يكون لهم "تنظيم" ما على شاكلة هذه التنظيمات التي نعرفها نحن في بلداننا العربية. وهم بذلك ناجحون في عملهم، مؤثرون في مجتمعهم، يخدمون القرآن الكريم حقاً وصدقاً على نحو بالغ التأثير يهدي الناس إلى سواء السبيل، ويحبب إليهم دينهم الذي ارتضاه الله لهم، ويعتق إيمانهم، ويزكي حياتهم، ويجعلهم هداة ودعاة للخير والصالح، بلا شعارات ولا لافتات، وإنما بالاستقامة والصدق والطهارة والإخلاص ومحبة الناس والسعي من أجل خدمتهم وتحقيق مصالحهم الدنيوية والأخروية معاً.

لقد عاش سعيد النورسي في عصر اشتدت فيه الحملات ضد الإيمان، وبلغ فيه حصار الإسلام في تركيا درجة لم يبلغها في أي بلد آخر من العالم. وكان الصراع بين الإيمان والإلحاد في عصره محتدماً عاصفاً مدمراً، إذ جندت الدولة في عهد أتاتورك كل إمكاناتها لمحاربة الإسلام وللقضاء على الإيمان ولقطع الصلة بين الشعب المسلم وبين كل ما له صلة بدينه وثقافته وهويته وثوابته. في تلك المرحلة كان سعيد النورسي مهموماً بقضية واحدة لا تزاحمها قضية أخرى، هي إنقاذ الإيمان، وإبطال دعاوى الإلحاد، والرد على المروجين له - وكانوا كثيراً - وتقوية ارتباط أبناء وطنه بالقرآن، وإقبالهم عليه، واعتزازهم به، وانتمائهم إليه.

كانت "رسائل النور" الوسيلة التي اعتمدها سعيد النورسي لنشر حقائق الدين وأنوار القرآن، في لغة يفهمها الإنسان العادي، وبأسلوب ينأى به عن الوقوع في الأحاييل التي كان ينصبها له أعداء الإسلام. ومع ذلك، وعلى الرغم من انتهاجه هذا النهج البعيد عن الافتعال والانفعال (اففعال الصراع

مع الوضع القائم، والانفعال بالتحديات والصدمات) في يسر وسماحة وفي منأى عن التزمت والتشدد، فإن السلطات كانت تضيّق الخناق على سعيد النورسي؛ فتعتقله تارة، وتنفيه إلى أقاصي البلاد وأعالي الجبال تارة أخرى، وتقدمه للمحاكم في كل الأحوال، بحيث عاش حياة شاقة كابد فيها وعانى ما شاء الله له أن يكابد ويعاني.

من هذا النبع الفياض تستقي جماعة النور خدام القرآن الكريم في تركيا.





إشارات الإعجاز في مظان الإيجاز

هذا نمط فريد من تفسير كتاب الله العزيز، من تصنيف الأستاذ سعيد النورسي، العالم العارف بالله الكاتب المفكر التركي المشهور بـ"بديع الزمان"، الذي عاش في النصف الأول من القرن العشرين. لقد كتب سعيد النورسي "إشارات الإعجاز في مظان الإيجاز"^(٤) باللغة العربية، في فترة الحرب العالمية الأولى، وفي ظروف بالغة القسوة؛ فقد كان يُملّي على رفيقه في الخندق أثناء المعارك التي شارك فيها، صفحات من هذا الكتاب، كما كان يؤلف فوق صهوة جواده -بالمعنى الحرفي لا المجازي- أثناء خدمته العسكرية، حيث عاش أهوال الحرب العظمى الأولى جندياً في صفوف الجيش العثماني في مواجهة الجيش الروسي، ثم وقع في الأسر، وكاد أن يحكم عليه بالإعدام من طرف السلطات الروسية القيصريّة، لولا لطف الله به الذي أدّخره سبحانه لأداء رسالته في الحياة.

يصف الدكتور محسن عبد الحميد هذا الكتاب في المقدمة الرائعة التي كتبها لطبعته الأولى التي صدرت في العراق في سنة ١٩٨٩م بتحقيق الأستاذ إحسان قاسم الصالحي، والتي أعيد نشرها في الطبعات الأربع التي صدرت من الكتاب حتى الآن، يصفه بقوله؛ إنه جليل القدر، رصين

(٤) إشارات الإعجاز في مظان الإيجاز، سعيد النورسي، دار النيل، القاهرة ٢٠٠٩.

السبك، قوي الحججة، يمثل أجلى تمثيل القدرة السريانية الفائقة للأستاذ النورسي، وراء المعاني الدقيقة في كتاباته كلها، لا سيما العلمية المختصة منها. ولقد كانت تلك موهبة عبقرية وهبها الله تعالى إياه، لينظر في كتاب الله من خلالها ببصيرة نافذة ومعرفة كلامية وبلاغية عميقة، وذوق ذاتي رفيع، ومنهج عقلي سديد، يلتمس الكشف عن الحقيقة، ويغيي إيصال الإنسان إلى اقتناع كامل بكون هذا القرآن معجزاً، بحيث يجد العقلاء والفصحاء في أنفسهم ضرورة الإيمان والاعتراف بأنه الكتاب الحق الذي نزل من عند علام الغيوب ﷺ على رسوله الأكرم محمد بن عبد الله عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم، كي يضع الإنسانية على طريق دعوة الحق، وينور بصيرتها بنور الإيمان، وإدراك اليقين للوصول إلى العبودية الخالصة لرب العالمين^(٥).

ولقد فتحت لي هذه المقدمة -والمقدمة الأخرى المؤثرة التي كتبها الأستاذ إحسان قاسم- الباب إلى عالم الأستاذ النورسي المدهش الحافل بالإشراقات النورانية والفتوحات الإيمانية؛ إذ وجدت في هذا الكتاب ما ملأ نفسي إعجاباً بهذا المؤلف الذي ولد في قرية جبليّة نائية عن الحواضر في الأناضول، وهي المنطقة الشرقية من تركيا. وتعلّم في قريته تلك على شيوخ العلم الذين لم تكن تخلو منهم منطقة في ذلك الجزء من العالم الإسلامي، في تلك المرحلة الدقيقة التي عرفت المحاولات الأولى لتقطيع أوصال الدولة العثمانية، ولتوجيه الضربات للإسلام. فأظهر نبوغاً مبكراً، حيث استوعب العلوم الشرعية واللغوية والأدبية التي درسها في

(٥) انظر: مقدمة كتاب "إشارات الإعجاز في مظان الإيجاز" للأستاذ سعيد النورسي، محسن

أمهات الكتب، وحصل قدرًا كبيرًا منها، حتى صار عالمًا مثقفًا مطلعًا على معارف شتى من القديم والحديث وقادرًا على التأليف في فرع دقيق من فروع الثقافة الإسلامية يتصل بنظرية النظم في القرآن الكريم. فجاء كتابه هذا -الذي صنّفه باللغة العربية، قبل أن يترجم إلى اللغة التركية، ومن ثم إلى لغات عالمية كثيرة- آية من آيات النبوغ الساطع والتألق البارع.

هذه حالة عجيبة غير مألوفة، تثير في النفس الإعجاب بهذه الشخصية الفذة النادرة. والغريب أن هذا التفسير ظل مجهولًا -أو يكاد يكون مجهولًا- في العالم العربي، إذ لم يرد له ذكر في الدراسات والمؤلفات التي صدرت عن تفاسير القرآن الكريم، كما لم يعرف مؤلفه بين مَنْ اشتغل بالعلوم القرآنية من العرب في النصف الأول من القرن العشرين، ولم يشر إليه ضمن كوكبة أعلام النهضة في مطالع القرن العشرين، من المفكرين والكتاب والمفسرين والمشتغلين بالدراسات الإسلامية بصورة عامة. وتلك واحدة من صور القطيعة المفتعلة التي فصلت بين تركيا وبين العرب طوال عقود من السنين كانت من أخطر المراحل التي عاشها العرب والمسلمون.

يقول الدكتور محسن عبد الحميد في التعريف بالقيمة العلمية لهذا التفسير: "وكانني بالأستاذ النورسي درس نظرية النظم دراسة متقنة ثم ظهر له أن المفسرين الذين سبقوه -كالزمخشري والرازي وأبي السعود- لم يحاولوا تطبيقها من حيث هي منظومة متكاملة تشمل ترتيب السور والآيات والألفاظ، سورة بعد سورة وآية بعد آية ولفظًا بعد لفظ، بتفاصيلها الكاملة، فأراد أن يقتدي بهؤلاء المفسرين العظام، فيؤلف تفسيرًا يطبق فيه نظرية النظم تطبيقًا تفصيليًا شاملاً من حيث المباني والمعاني، ومن حيث

المعارف اللغوية والعقلية والذوقية، الكلية منها والجزئية، والتي اعتمد عليها في الكشف عن تفاصيل المنظومة القرآنية التي بها يظهر الإعجاز، وتتكشف دقائق خصائص الأسلوب القرآني التي خالفت خصائص التعبير العربي البليغ قبله"^(٦). وهذا ما تبدى لي عند قراءتي في هذا الكتاب، الذي صدر في طبعته الجديدة المنقحة ضمن موسوعة "كليات رسائل النور"، بتحقيق الأستاذ إحسان قاسم الصالحي، وهو مثقف عالم ومفكر باحث من تركمان العراق، استوطن تركيا منذ سنوات ويحمل جنسيتها، ويدير مركزاً للدراسات الإسلامية يتخصص في دراسة آثار النورسي وقضايا الفكر في العالم الإسلامي.

يقول الأستاذ سعيد النورسي في مقدمة الترجمة التركية لهذا الكتاب: "لولا موانع الحرب العالمية، فقد كانت النية تتجه إلى أن يكون هذا الجزء وقفاً على توضيح الإعجاز النظمي من وجوه إعجاز القرآن، وأن تكون الأجزاء الباقية كل واحد منها وقفاً على سائر أوجه الإعجاز. ولو ضمت الأجزاء الباقية حقائق التفسير المتفرقة في الرسائل، لأصبح تفسيراً بديعاً جامعاً للقرآن المعجز البيان"^(٧). ثم يقول موضحاً الظروف التي أُلِف فيها هذا التفسير: "لقد تم تأليف تفسير "إشارات الإعجاز" في السنة الأولى من الحرب العالمية الأولى على جبهة القتال بدون مصدر أو مرجع، وقد اقتضت ظروف الحرب الشاقة وما يواكبها من حرمان، أن يكتب هذا التفسير في غاية الإيجاز والاختصار لأسباب عديدة"^(٨).

(٦) مقدمة كتاب "إشارات الإعجاز"، ص: ٥.

(٧) إشارات الإعجاز، ص: ١٥-١٦.

(٨) إشارات الإعجاز، ص: ١٥.

ويشرح الأستاذ النورسي هذه الأسباب فيقول: "إن ذلك الزمان لم يكن يسمح بالإيضاح، لأنني كنتُ أُعَبِّرُ بعبارات موجزة وقصيرة عن مرامي، وكنت أضع درجة أفهام طلبتي الأذكاء جدًّا موضع الاعتبار، ولم أكن أفكر في فهم الآخرين، ولما كنت أبين أدق وأرفع ما في نظم القرآن من الإيجاز المعجز، جاءت العبارات قصيرة ورفيعة"^(٩).

وهذا صحيح، فالكتاب دسم، أو لنقل هو من الكتب ذات العيار الثقيل. فليس متاحًا للقارئ العادي فهم عباراته بسهولة. وإدراك مراميه يسر، والوقوف على معانيه قبل أن يترث ويتأمل ويتعمق في الفقرات التي يقرأها.

ولكن الكتاب في العمق والجوهر، يبلغ الذروة في البلاغة والدقة في التعبير والعمق في استكناه المعاني القرآنية. ولذلك أعود فأقول إنه نمط فريد في التفسير جدير بأن تفرد له دراسات معمقة.

ومما لفت نظري أن الأستاذ سعيد النورسي يكتب بلغة عربية عالية المستوى تضعه في مصاف كبار الكتاب باللغة العربية في القرن العشرين. ولا غرو فالزمنخشري من خوارزم، والرازي من الري، وهما الذروتان اللتان اقتدى بهما المؤلف التركي.

إن "رسائل النور" تصدر عن "إشارات الإعجاز في مظان الإيجاز"، فهذا الكتاب هو المنبع ومصدر النور.



^(٩) إشارات الإعجاز، ص: ١٥.



فيوضات نورية في آيات قرآنية

تصدى الأستاذ سعيد النورسي للطاعين في القرآن الكريم، من الملاحدة والماسونيين والعلمانيين والوضعيين الماديين والتنصيريين والصهيانية، الذين وجدوا الطريق معبّدة إلى اختراق الدولة العثمانية في آخر عهدها، وخاصة أثناء الحرب العالمية الأولى، حين تصاعدت المؤامرات للقضاء على الدولة، تمهيداً للكوارث العظمى التي ستحدث بعد انتهاء الحرب، حيث تغيرت الخريطة الجغرافية السياسية في المنطقة، وهبّت رياح الغزو الفكري والديني العاصفة، وتعلّت موجات الإلحاد والدعوة إلى التنكر للعقائد والثواب والخصوصيات الثقافية والحضارية، أو القطيعة المعرفية مع الماضي كما يقولون.

لقد كان الطعن في القرآن الكريم في تلك المرحلة يأخذ مسالك متعددة، ويسير في اتجاه اقتلاع جذور الإيمان من القلوب والإعراض عن كتاب الله كلياً. في تلك الفترة القلقة المضطربة على جميع الأصعدة، كان النورسي يحمل راية القرآن، ويفحم المتشكّكين، ويدحض شبهاتهم، ويبطل دعاواهم، ويفند مزاعمهم، ويردّ بالكلمة المؤمنة وبالمنهج الرشيد، كيدهم في نحورهم.

لقد عرفت تركيا خلال الفترة -التي تبدأ من التأمّر على السلطان عبد الحميد الثاني وخلعه في عام ١٩٠٩م، وتنتهي في مطلع الخمسينيات-

حربًا واسعة النطاق على الإسلام لم تعرفها البلاد العربية الإسلامية الأخرى. وهي الحرب الضروس التي وصفتها في مقال سابق بأنها كانت "إبادة دينية" غير معروفة في التاريخ المعاصر. وكان على الأستاذ سعيد النورسي أن يواجه هذه الحرب بأسلوبه الخاص، وبإيمانه القوي الذي يتحدّى به الصعاب، وبقلمه البليغ الذي هزّ به أركان الكفر والبهتان وتصدّى للتآمر على كتاب الله في أرض كانت حامية للإسلام لمدة تزيد على ستة قرون.

وفي كتابه "إشارات الإعجاز في مظان الإيجاز" الذي كتبه أثناء الحرب العالمية الأولى، حينما كان يحارب ضمن القوات العثمانية القوات الروسية القيصرية، يعرض لعدد من الشبهات التي كان يثيرها خصوم القرآن في تركيا ولا يزال يثيرها من سار على دربهم في بلادنا العربية. لنقرأ ما كتبه النورسي في تفسير الآية الكريمة من سورة البقرة ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أََمْْواتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (البقرة: ٢٨)، حيث يردّ على السؤال الذي يطرحه المتشككون حول مدلول الآية، فيقول: "اعلم أن الموت ليس إعدامًا وعدمًا صرفًا، بل تصرف، وتبديل موضع، وإطلاق للروح من المحبس. وكذا أن ما وجد في نوع البشر إلى الآن من أمارات غير معدودة، ونَجَمَ من إشارات غير محدودة، ألقت إلى الأذهان قناعة وحدسًا بأن الإنسان بعد الموت يبقى بجهة، وأن الباقي منه هو الروح. فوجود هذه الخاصية الذاتية في فرد يكون دليلًا على وجودها في تمام النوع للذاتية. ومن هنا تكون الموجبة الشخصية مستلزمة للموجبة الكلية. فحينئذ يكون الموت معجزة القدرة

كالحياء، لا أنه عدمٌ علته عدمُ شرائط الحياة^(١٠).

ثم يرد سعيد النورسي على سؤال السائل: "كيف يكون الموت نعمة حتى نُظَم في سلك النعم؟"، فيقول: "أولاً لأنه مقدمة للسعادة الأبدية، ولمقدمة الشيء حكم الشيء حسناً وقبحاً؛ إذ ما يتوقف عليه الواجب واجبٌ وما ينجر إلى الحرام حرام. وثانياً لأن الموت عند أهل التحقيق من المتصوفين، نجاة للشخص بخروجه عن نظير المحبس المشحون بالحيوانات المضرة إلى صحراء واسعة. وثالثاً لأنه باعتبار نوع البشر نعمة عظيمة، إذ لولاها لوقع النوع في سفالات مدهشة. ورابعاً فلأنه باعتبار بعض الأشخاص نعمة مطلوبة؛ إذ بسبب العجز والضعف لا يتحمل تكاليف الحياة وضغط البليات وعدم شفقة العناصر، فالموت باب فوزه"^(١١).

وفي شرحه للآية الكريمة ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (البقرة: ٢٩)، يتألق سعيد النورسي، فيقول: "إن نقليات الشرع تدل على أن الله تعالى خلق أولاً جوهرة -أي مادة- ثم تجلى عليها فجعل قسماً منها بخاراً وقسماً مائعاً. ثم تكاثف المائع بتجليه فأزبد. ثم خلق الأرض أو سبع كرات من الأرضين من ذلك الزبد، فحصل لكل أرض منها سماء من الهواء النسيمي. ثم بسط المادة البخارية فسوى منها سبع سماوات زرع فيها النجوم فانعقدت السماوات مشتملة على نويات النجوم. وإن فرضيات الحكمة الجديدة [يقصد العلوم الحديثة] ونظرياتها، تحكم بأن

^(١٠) إشارات الإعجاز في مظان الإيجاز، سعيد النورسي، دار النيل، القاهرة ٢٠٠٩، ص: ٢١٠.

^(١١) إشارات الإعجاز، ص: ٢١٠.

المنظومة الشمسية (أي مع سمائها التي تسبح فيها) كانت جوهرًا بسيطًا ثم انقلب إلى نوع بخار، ثم حصل من البخار مائع نارٍ، ثم تصلب بالتبريد منه قسم، ثم ترمى ذلك المائع الناري بالتحرك شرارات وقطعات انفصلت فتكاثفت فصارت سيارات منها أرضنا هذه. فإذا سمعت هذا يجوز لك التطبيق (المطابقة = المقارنة) بين هذين المسلكين، لأنه يمكن أن يكون آية ﴿كَانَتْ رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا﴾ (الأنبياء: ٣٠٠) إشارة إلى أن الأرض مع المنظومة الشمسية كانت كالعجين عجنته يد القدرة من جوهر بسيط^(١٢).

وممكن العجب في هذا الكلام الراقي الدقيق، أن سعيد النورسي الذي لم يتعلم في عاصمة من العواصم، إذ تلقى تعليمه على شيوخ العلوم الشرعية واللغوية والأدبية في قريته بالأناضول شرقي تركيا، يتحدث هنا عن نظرية "الانفجار العظيم" التي يقول بها علماء الفيزياء اليوم، ويربط بينها وبين قوله تعالى: ﴿كَانَتْ رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا﴾ ربطًا دقيقًا محكمًا، ويشير إلى ما تقول به "الحكمة الجديدة" التي يقصد بها العلوم الحديثة. فمن أين أتى النورسي بهذه المعلومات؟! صحيح أنه قرأ الكتب العلمية القديمة والحديثة، واستوعب المعارف العلمية التي كانت معروفة عهدئذ في المؤلفات العربية والتركية، وكان نابغًا في فهمه لهذه العلوم وإحاطته بها؛ ولكن نظرية "الانفجار العظيم" لم تكن متداولة في الفترة التي كتب فيها "إشارات الإعجاز في مظان الإيجاز".

في كتابه هذا "إشارات الإعجاز في مظان الإيجاز" المدهش، ينتقل بنا المؤلف سعيد النورسي من قضية إلى أخرى من جملة القضايا الفكرية

(١٢) إشارات الإعجاز، ص: ٢١٧.

والعقائدية التي يطرحها خصوم القرآن الكريم في كل زمان ومكان، وهم اليوم كثر، ويعالجها معالجة دقيقة تنم عن قوة إيمان ورجاحة عقل وشفافية روح. ويمكن أن نعدّ هذا الكتاب الأساس الذي بني عليه مشروعه التنويري (التنوير الحقيقي أداته القرآن ومصدره القرآن وغايته القرآن) الذي أفلح فيه وكتب الله له التوفيق إلى أبعد الحدود.

بالأمس كنتُ أقرأ في المجلد الأول من "كليات رسائل النور" الذي يحمل عنوان "الكلمات"^(١٣)، فوجدت سعيد النورسي يحيل على كتاب "إشارات الإعجاز" في مواضع كثيرة، عند الحديث عن عظمة القرآن الكريم والتعمق في استكناه الفيوضات النورية من الآيات القرآنية، فأيقنت أن الرجل كان قمة من قمم العلم والفكر والدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة وبالتي هي أحسن، وبالروح الإنسانية التي تنأى عن الغلو والتشدد والتطرف بكل أشكاله.



^(١٣) الكلمات، سعيد النورسي، دار النيل، القاهرة ٢٠٠٩.



نفحات قرآنية وفتوحات ربانية

كلما مضيتُ في قراءة كتاب "إشارات الإعجاز في مظان الإيجاز" للأستاذ سعيد النورسي، إلّا واستوقفني ذكاؤه الحاد وحافظته القوية المدهشة؛ فقد فوجئتُ بالمؤلف ينقل عن ظهر قلب صفحات عديدة من كتاب "أسرار البلاغة" لعبد القاهر الجرجاني مع الإشارة إلى المصدر. ومبعث المفاجأة هنا أن الكاتب سبق أن ذكر في المقدمة التي كتبها للترجمة التركية لتفسيره هذا والمنشورة في الطبعة العربية، أنه لم يكن بين يديه -خلال انكبابه على التأليف- أيّ مرجع من المراجع. وطلباً للمزيد من اليقين، سألتُ الأستاذ إحسان قاسم الصالحي (محقق الكتاب والمُشرف على نشره ضمن موسوعة "كليات رسائل النور") في رسالة بعثتها إليه عن حقيقة الأمر، فردّ عليّ في اليوم التالي في رسالة كريمة منه، بقوله: "نعم كان الأستاذ النورسي حافظاً لثمانين من أمهات الكتب ومنها الكتاب المذكور". وإذا علمنا أن جل هذه الكتب الأمهات يقع في عدة أجزاء، فإن عجبنا سيكون أكبر، ودهشتنا ستكون أعظم، وتقديرنا للرجل الصالح المصلح سيكون أبلغ.

وعبد القاهر الجرجاني هو من فطاحل العلماء، ومن نبغاء الإنسانية، وإمام في اللغة والبلاغة، ومن مؤلفاته العميقة الرائدة "إعجاز القرآن"، و"دلائل الإعجاز"، و"المقتصد"، و"أسرار البلاغة". وهو من أصل

فارسي من جرجان، مثله مثل جل العلماء الكبار الذين أغنوا المكتبة العربية الإسلامية. وواضح أن الأستاذ سعيد النورسي متأثر بعبد القاهر الجرجاني، قرأ كتبه واستوعبها وحفظها فنقشت في ذاكرته. ولذلك نجده يستشهد به كما يستشهد بغيره، فيما ينقله عنهم من مخزون ذاكرته الفريدة التي هي فضل من الله وهبة وكرامة، بحيث تتدفق المعاني من قلمه، وتنثال الأفكار وتفيض التأملات، ويجول بالقارئ في رياض الفكر، فينتقل من البلاغة إلى اللغة إلى النحو إلى علم الكلام، إلى مناقشة أصحاب المذاهب، ويخوض في علوم شتى ليست كلها علوماً إسلامية، على نحو يشير العجب من المقدرة الفائقة التي حباه الله بها، حتى يحار القارئ في تصنيف المؤلف وفقاً للتصنيفات المعهودة في الثقافة العربية الإسلامية.

اقرأ معي ما كتبه سعيد النورسي في تفسيره لقوله تعالى ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (البقرة: ٧)، يقول رحمه الله: "اعلم أن الطبيعيين يقولون: إن للأسباب تأثيراً حقيقياً؛ والمجوس يقولون: إن للشر خالقاً آخر؛ والمعتزلة يدعون: إن الحيوان خالق لأفعاله الاختيارية. وأساس هذه الثلاثة مبنية على وهم باطل وخطأ محض، وتجاوز عن الحدّ وقياسٍ مع الفارق؛ إذ ذهبوا ظناً منهم إلى التنزيه، فوقعوا في شَرَكِ الشِّرْكِ" (١٤). ثم يفصل القول في دحض هذا الوهم، على النحو التالي: "إنه كما أن استماع الإنسان وتكلمه وملاحظته وتفكره، جزئية تتعلق بشيء فشيء على سبيل التعاقب، كذلك همته جزئية لا تشتغل بالأشياء إلا على سبيل التناوب. إن قيمة الإنسان بنسبة ماهيته..

(١٤) إشارات الإعجاز في مظان الإيجاز، سعيد النورسي، دار النيل، القاهرة ٢٠٠٩، ص: ٧٨.

وماهيته بدرجة همته.. وهمته بمقدار أهمية المقصد الذي يشتغل به. وإن الإنسان إلى أي شيء توجه يفنى فيه وينحبس عليه. ومن هذه النقطة ترى الناس -في عزهم- لا يسندون شيئاً خسيساً وأمرًا جزئيًا إلى شخص عظيم وذو بال، بل إلى الوسائل، ظنًا منهم أن الاشتغال بالأمر الخسيس لا يناسب وقاره، وهو لا يتنزل ولا يسع الأمر الخطير همته العظيمة، ولا يوازن الأمر الخفيف مع همته العظيمة"^(١٥).

وهكذا يمضي في تأصيل العقيدة الصحيحة، وفي إبطال العقائد الفاسدة في قوة حجة وعمق تحليل. ولاستغراقه في التفكير تأتي عباراته غالبًا دقيقة مكثفة بحيث يستعصي فهمها على غير القارئ المتعمق والمتخصص. ولكن بطول الممارسة والتعود على قراءة مثل هذه النصوص، تفتح أمام الذهن آفاق واسعة، وينشرح الصدر بالاطمئنان، وتنثشي النفس بالنفحات القرآنية، ويمتلئ القلب يقينًا بأن المؤلف أوتي فتوحات ربّانية. وهذه النفحات القرآنية تهبّ على القارئ في كل صفحة من كتاب الأستاذ سعيد النورسي "إشارات الإعجاز في مظان الإيجاز". يقول في تفسير قوله تعالى ﴿الْم﴾ (البقرة: ١): "إن ﴿الْم﴾ إشارة إلى نهاية الإيجاز، الذي هو ثاني أساسي الإعجاز. وفيه لطائف، منها ﴿الْم﴾ يرمز ويشير ويلوح ويلمح بالقياس التمثيلي المتسلسل، إلى أن هذا كلام الله الأزلي نزل به جبريل على محمد عليهما الصلاة والسلام، لأنه كما أن الأحكام المفصلة في مجموع القرآن قد ترسم في سورة طويلة إجمالاً، وقد تتمثل سورة طويلة في قصيرة إشارة؛ فقد تدرج سورة قصيرة في آية رمزًا، وقد تندمج آية في

(١٥) إشارات الإعجاز، ص: ٧٨.

كلام واحد تلويحاً، وقد يتداخل كلام في كلمة تلميحاً، وقد تتراءى تلك الكلمة الجامعة في حروف مقطعة كـ"سين لام ميم" .. كالقرآن في البقرة، والبقرة في الفاتحة، والفاتحة في "بسم الله الرحمن الرحيم"، و"بسم الله الرحمن الرحيم" في السملة المنحوتة (المقصود النحت اللغوي)، كذلك يجوز ذلك في ﴿آلَم﴾ أيضاً^(١٦).

وفي موضع آخر، نقرأ للنورسي تفسيراً دقيقاً وشرحاً شافياً لكلمة "الرحمة"، فنجده يقول: "إن رحمة الرحمن الرحيم تبشر بقدوم أعظم الرحمة (أعني السعادة الأبدية)؛ إذ بها تصير الرحمة رحمة، والنعمة نعمة، وبها تخلص الكائنات من النياحات المرتفعة من المأتم العمومي المتولد من الفراق الأبدي المصير للنعم نقماً. إذ لو لم يجئ روحُ النعم، (أعني السعادة الأبدية) لتحوّل جميع النعم نقماً، وللزم المكابرة في إنكار الرحمة الثابتة بشهادة عموم الكائنات بالبداهة وبالضرورة"^(١٧). وهي معانٍ عميقة ربما لم يسبق إليها الكاتب، تدل على شفافية روح وعمق تأمل في كتاب الله.

ويقول سعيد النورسي في عبارات دقيقة معبرة أبلغ تعبير عند تفسيره لكلمة ﴿الْحَمْدُ﴾ (الفاتحة: ٢): "إن الله سبحانه خلق الإنسان وجعله نسخة جامعة للكائنات وفهرسة لكتاب العالم المشتمل على ثمانية عشر ألف عالم، وأودع في جوهره نموذجاً من كل عالم تجلى فيه اسم من أسمائه تعالى. فإذا صرف الإنسان كل ما أنعم عليه إلى ما خُلق لأجله إيفاءً للشكر العرفي -الداخل تحت الحمد- وامثالاً للشرعية التي هي جلاء

^(١٦) إشارات الإعجاز، ص: ٤١.

^(١٧) إشارات الإعجاز، ص: ٦٠.

لصدأ الطبيعة، يصير كل أنموذج مشكاة لعالمه ومرآة له وللصفة المتجلية فيه والاسم المتظاهر به. فيكون الإنسان بروحه وجسمه خلاصة عالمي الغيب والشهادة، ويتجلى فيه ما تجلى فيهما^(١٨). ويأتي ذلك في سياق تفسيره للفاتحة الذي تعمق فيه، إذ يقول: "وجه النظم مع ما قبله [أي ﴿الْحَمْدُ﴾]: إن ﴿الرَّحْمَنَ﴾ و﴿الرَّحِيمَ﴾ لَمَّا دلتا على النعم استوجبتا تعقيب الحمد. ثم إن ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ (الفاتحة: ٢) قد كرّرت في أربع سور من القرآن، كل واحدة منها ناظرة إلى نعمة من النعم الأساسية التي هي: النشأة الأولى، والبقاء فيها؛ والنشأة الأخرى، والبقاء بعدها"^(١٩). وهذا كلام دقيق في تفسير الفاتحة على نحو غير معهود يقوي الإيمان، ويشرح الصدر، ويملأ القلب سكيناً واطمئناناً.

وهكذا يمضي سعيد النورسي في كتابه "إشارات الإعجاز" الذي ألفه أثناء الحرب العالمية الأولى، وفي ظروف صعبة مضطربة لم تكن تسمح بالتفكير والتأمل بله التأليف. وهي حالة فريدة لم نعهد لها في المؤلفين الذين عرفتهم الثقافة العربية الإسلامية، ولا في غيرهم.

الغريب أن الأستاذ سعيد النورسي الذي صَنَفَ هذا التفسير الذي يقترب من أن يكون من التفاسير التي تأخذ بنظرية النظم في القرآن الكريم، مع الفارق بينه وبين غيره من المفسرين، لم يكن يقبل أن يقال عنه إنه "مفكر إسلامي"، أو "داعية إسلامي"، أو "مصلح إسلامي"، أو "علامة"، أو "إمام".. فهذه الأوصاف التي نعرفها اليوم، ما كان يقبل بها. وهو محقّ وصادق في موقفه هذا؛ فعلماء الأمة - قبل القرن العشرين - لم يكونوا

(١٨) إشارات الإعجاز، ص: ٢٥.

(١٩) إشارات الإعجاز، ص: ٢٤.

ينعتون ببعض هذه الصفات التي ظهرت في عصرنا وانتشرت حتى أوقعتنا في الحيرة من أمرنا. لقد كان النورسي يصف نفسه بأنه "خادم القرآن الكريم"، وهي صفة جليلة القدر تغطي على كل صفة غيرها. ولذلك فإن خدام القرآن من دعوة النور -الذين ينتمون إلى مدرسة سعيد النورسي- لا يزدون على أن يطلقوا على صاحب "إشارات الإعجاز" لقب "الأستاذ" لا غير. وفي ذلك معنى جدير بأن يُتأمل ويُهتدى به.





في البحث عن مصادر الحكمة في تركيا اليوم

تفرض التجربة التركية في تجلياتها السياسية والاقتصادية نفسها على المشتغلين بقضايا التخطيط الاستراتيجي لمستقبل العالم الإسلامي، باعتبار أن هذه التجربة الناجحة والمثيرة للاهتمام، تشكّل حالة فريدة على مستوى العالم كله، وليس العالم الإسلامي فحسب، فهي تجربة سياسية واقتصادية واجتماعية غنية، وتنطوي على دلالات عميقة تستدعي البحث عن مصادر الحكمة فيها ومنابع الإلهام الذي يهدي إلى أقوم السبل للبناء الديمقراطي والرخاء الاقتصادي والنماء الاجتماعي في الميادين كافة. ولذلك أحرص دائماً على البحث -ومن خلال القراءة المتواصلة- عن مصادر الحكمة في تركيا اليوم كلما أُتيحت لي الفرصة.

وفي زيارتي الأخيرة لإسطنبول، اشتريتُ الطبعة الثانية من كتاب "كليات رسائل النور" لبديع الزمان سعيد النورسي. وتقع "كليات رسائل النور" في عشرة مجلدات، ترجمها من اللغة التركية إلى اللغة العربية صديقي الأستاذ إحسان قاسم الصالحي. وكنتُ قد قرأتُ الطبعة الأولى التي صدرت قبل سنوات، وقبل ذلك كنتُ قد قرأتُ بعضاً من رسائل النور نشرت في كتب صغيرة مستقلة في المرحلة السابقة لجمعها ونشرها في مجموعة. وتمتاز الطبعة الثانية بتنقيحات وشروح وهوامش جديدة، إلى جانب تخريج الآيات القرآنية والأحاديث النبوية وكتابة تراجم

مختصرة لبعض الأعلام الوارد ذكرها في المتن، وتشكيل بعض الكلمات بصورة مدققة، وهو ما كان ينقص الطبعة الأولى. وهذا عمل بالغ الأهمية وجهدٌ متميز بذله المترجم الذي جمع بين الإجادة التامة للغتين التركية والعربية، فهو من أصل عراقي من طائفة التركمان، انتقل إلى تركيا فحمل جنسيتها، وهو اليوم من الباحثين الأكاديميين الأتراك المتخصصين في فكر النورسي، ويُشرف على تنظيم ندوات فكرية وثقافية في عديد من جامعات العالم الإسلامي حول رسائل النور. وإلى الأستاذ إحسان يرجع الفضل في تقديم الأستاذ النورسي المعروف بـ"بديع الزمان" إلى القارئ العربي في لغة عربية مشرقة استوعبت دقائق رسائل النورسي ورقائق وجدانه وحقائق فكره الذي ظل مجهولاً في العالم العربي، بينما هو فكر إيمانيّ تنويريّ إشراقيّ إصلاحيّ رائد لا نظير له بين الأفكار التي ظهرت في العالم الإسلامي كله منذ مطالع القرن العشرين وإلى وفاة بديع الزمان في سنة ١٩٦٠م.

ولأنني قارئ مدمن لـ"رسائل النور"، فلذلك أستطيع أن أشهد أن المترجم الأستاذ إحسان قاسم الصالحي، قد تفوق إلى حد كبير في نقل هذا الأثر النفيس إلى اللغة العربية، ليس نقلاً حرفياً بترجمة جامدة، وإنما بقدر كبير من إشراق الديباجة ودقة العبارة وحسن الأداء بلغة عربية جميلة تشدّ القارئ وتقربه من عالم رحب الأرجاء فسيح الآفاق مشرق الأنوار مضمخ بالمسك الذي يفوح من الأفكار والتأملات والخواطر والرؤى التي تتماوج وتنبلور في رسائل النور. وبذلك يكون المترجم بعمله هذا البالغ أقصى درجة من الضبط والإجادة والإنقان، قد ارتقى إلى ذروة الإبداع الفكري والإشراق البياني حين تَماهى مع المؤلف المفكر المرّي

المصلح الذي كان نسيج وحده، بكل ما في هذه الكلمة من معنى، واندمج مع رسائله متشربًا رحيقها ومستوعبًا معانيها وسابراً أغوارها.

تشمل "كليات رسائل النور" في ثمانية أجزاء منها الكتب التالية: الكلمات، اللمعات، المكتوبات، الشعاعات، إشارات الإعجاز في مظان الإيجاز، المثنوي العربي النوري، الملاحق، صَيَقْل الإسلام. إضافة إلى الكتاب التاسع الخاص بالسيرة الذاتية لبديع الزمان التي كتبها الأستاذ إحسان قاسم الصالحي من خلال رسائل النور. أما الكتاب العاشر المخصص للفهارس، فهو من إعداد الأستاذ حازم ناظم فاضل. وقد وجدتُ أن هذا الاسم ينطبق تمامًا على العمل المبدع المتقن المحكم المنسجم الجامع الذي قام به صاحبه في صناعة هذه الفهارس. وأقول "صناعة الفهارس" على غرار ما كان يكتبه على أغلفة الكتب التي يحققها أستاذه محمد شاکر يرحمه الله شيخ المحققين للتراث العربي الإسلامي، وعضو مجمع اللغة العربية في القاهرة والصدیق الشخصي للزعيم الأستاذ علال الفاسي، رحمهما الله. فهذه الفهارس المفصلة بدقة متناهية، هي غوص في بحر كليات رسائل النور لاستخراج اللؤلؤ والمرجان من أعماق هذا البحر المحيط. ولستُ أعلم مصنفًا أو مفسرًا أنجز عملاً توثيقياً بهذا الحجم والشمول والتدقيق والتعمق.

ويضم المجلد العاشر من "كليات رسائل النور" فهارس للآيات القرآنية وللأحاديث الشريفة والآثار والأخبار، ولآيات الإنجيل والتوراة والزبور، وللأفكار الرئيسة، وللمفردات العامة، ولمفردات تخص الأسماء الحسنى والصفات الإلهية، ولمفردات تخص القرآن الكريم، ولمفردات تخص الرسول الكريم ﷺ، ولمفردات تخص الإنسان، وتعريفات للمفردات،

وللأعلام، ولرجال الأسانيد، وللجماعات والأقوام والقبائل، وللحكيم والأمثال العامة، وللقواعد والدساتير، ولأقوال العارفين والعلماء وأهل الدنيا، ولمزايا رسائل النور، وللكتب والرسائل للمؤلف ولغير المؤلف، وللأشعار العربية والأشعار الفارسية والأشعار التركية والأشعار الكردية، وللأماكن: المواضع والمواقع والجوامع والكنائس والمشاهد والقبور، وللحوادث التاريخية، وللموازنات والفروقات، ولتعليقات المؤلف على الأشخاص: الأعلام وطلاب النور، ولمشاهدات المؤلف عن سيرة حياته، وللنكات (الدقائق) النحوية والبلاغية، وللنباتات والأشجار، وللحيوانات والطيور، وللعناصر والأحجار الكريمة، وللأطعمة والأشربة، وللمكاييل والنقود، وللملابس والأزياء والزينة، وللمصطلحات الطبية، وللمصطلحات العسكرية، وللأجرام السماوية، وللأصنام والآلهة، وللصور والخرائط والجداول، وللكلمات المعربة والأجنبية.. إلى جانب نبذة عن بعض الأعلام، وقطوف من موازين النور، ومخطط كليات رسائل النور. فهذا عمل مدهش قام به الأستاذ حازم ناظم فاضل الذي صَاحَبَ المترجمَ الأستاذَ إحسان قاسم الصالحي في المرحلة الأولى التي بدأ فيها يترجم هذه الرسائل منذ سنة ١٩٧٩م في كركوك بالعراق، وكان يقوم بتبويض مسودّات الترجمة، وعمل على تنظيم فهرس لكل مجلد من المجلدات التسعة التي ظهرت تترى فيما بعد سنة ١٩٩٠م في كل من إسطنبول والقاهرة.

لقد اختار واضع الفهارس عنوان "قطوف من موازين النور"، لينشر تحته مقتطفات منتقاة بدقّة من رسائل الأستاذ بديع الزمان سعيد النورسي تُظهر الخصائص الإيمانية والمميزات الفكرية التي كانت لهذا المفكر

التركي الذي تُعدُّ رسائله التي هي فصول فكرية وبحوث دينية وشروح وتفسيرات قرآنية وسياحة فكرية في فضاءات القرآن الكريم، من بؤادر اليقظة في العالم الإسلامي التي لم تدرس بالقدر الكافي، وهي من مصادر الحكمة والإشراق في التجربة التركية الحالية على الأصعدة جميعاً، من السياسة إلى الاقتصاد إلى الحياة العلمية والتكنولوجية والتعليمية والثقافية والاجتماعية بصورة عامة. ذلك أن من رسائل النور استمد القادة الأتراك الذين يقودون البلاد في هذه المرحلة، بطريقة أو بأخرى، المدد العقائديّ والسند الروحي والخلفية الثقافية، حتى وإن كانوا ليسوا من مدرسة المفكر المجدّد الأستاذ محمد فتح الله كولن الذي يعدّ بحق المهندس الروحي للنهضة الحضارية في تركيا، ولكنهم يلتقون من حيث الجذور الفكرية والأصول العقائدية مع جماعة النور التي يقود ركبها اليوم. ومن هذه القُطوف أقوال النورسي من رسائله ذات الدلالات العميقة التي تنير معالم الطريق نحو المستقبل، والتي سنعرضها في هذا المقال بنصّها بين مزدوجين. يقول النورسي:

• "إن حقيقة الإسلام هي التي ستسود قارات العالم وتستولي عليها"^(٢٠).

• "إن المستقبل سيكون للإسلام، وللإسلام وحده، وإن الحكم لن يكون إلا لحقائق القرآن والإيمان"^(٢١).

• "كانت خصومة الشرق تخنق انبعاث الإسلام وصحّوته؛ وقد زالت، وينبغي لها ذلك.. أما خصومة الغرب فينبغي أن تدوم لأنها سبب

^(٢٠) صيقل الإسلام، سعيد النورسي، دار النيل، القاهرة ٢٠٠٩، ص: ٢٠.

^(٢١) صيقل الإسلام، ص: ٤٦٠.

مهمّ في تنامي الأخوة الإسلامية ووحدها" (٢٢).

• "إن السياسة الحاضرة لإسطنبول شبيهة بالإنفلونزا تسبّب الهذيان، فنحن لسنا متحركين ذاتياً، بل نتحرك بالوساطة؛ فأوروبا تنفخ ونحن نرقص هنا، فهي تلقن بالتنويم المغناطيسي، ونحن نتصورها نابعة من أنفسنا ونجري إثر تلقينها بتخريب أعمى وأصم" (٢٣).

وينبغي الإشارة إلى أن سعيد النورسي كتب هذا في الثلاثينيات من القرن الماضي، في عهد مصطفى كمال أتاتورك الذي كان من أهدافه محو الإيمان من قلوب الأتراك ونشر الإلحاد والتمكين له ومحاربة الإسلام. ومن أقوال سعيد النورسي التي يعبر بها عن قوة اليقين في التغيير الذي يعيد للمسلمين كرامتهم الممتحنة وحرّيتهم المستباحة:

• "ستشرق شمس الحقيقة يوماً.. أفيظّل العالم في ظلام إلى الأبد؟! " (٢٤).

• "إن إسناد محاسن المدنية إلى النصرانية التي لا فضل لها فيها، وإلصاق التدنّي والتقهقر بالإسلام الذي هو عدوّ له، دليل على دوران المقدرات بخلاف دورتها، وعلى قلب الأوضاع" (٢٥).

ويطلق النورسي صرخة مدوية في عز جبروت مصطفى كمال أتاتورك معلناً الاعتزاز بالإسلام وحثاً الشعب التركي على التشبث بدينه. فيقول:

(٢٢) صيقل الإسلام، ص: ٣٣٤.

(٢٣) صيقل الإسلام، ص: ٣٣٥.

(٢٤) صيقل الإسلام، ص: ٣٤٠.

(٢٥) صيقل الإسلام، ص: ٣٤٣ (الهامش)؛ وانظر: المكتوبات، سعيد النورسي، المكتوب الثالث والثلاثون.

• "أيها المسلم! إياك أن تتخدع. فلا تخفض رأسك! فإن قطعة ألماس نادرة مهما كانت صدئة أفضل من قطعة زجاج لامعة دوماً. فضعف الإسلام الظاهري ناشئ من خدمة هذه المدنية الحاضرة في سبيل دين آخر" (٢٦).

وفي تلك الفترة المظلمة من تاريخ تركيا المعاصرة، حيث تكاثفت ظلمات الإلحاد والكراهية للإسلام، صدع النورسي بكلمة الحق:

• "أقول بكل ما أملك من قوة: إنه لا رقيّ لنا إلا برقيّ الإسلام الذي هو ملّتنا، ولا رفعة لنا إلا بتجلّي حقائق الشريعة" (٢٧).

ودعا إلى التأمل في التجربة اليابانية وأخذ العبرة منها، فقال:

• "ينبغي لنا الاقتداء باليابانيين في المدنية، لأنهم حافظوا على تقاليدهم القومية التي هي قوام بقائهم وأخذوا بمحاسن المدنية من أوروبا. وحيث إن عاداتنا القومية ناشئة من الإسلام وتزدهر به، فالضرورة تقتضي الاعتصام بالإسلام" (٢٨).

وعبر النورسي عن إحساسه بالواقع الضاغط بكثافة التحديات التي تكتنفه، فقال معبراً عن حالة المعاناة التي يعيشها بقلب مؤمن مقروح خاشع:

• "إنه لا يقلقني سوى المخاطر المحدقة بالإسلام. إذ كانت المخاطر سابقاً تأتي من الخارج وكانت مقاومتها يسيرة، أما الآن فإنها تأتي من الداخل حيث دبّت الدّيدان في الجسد وانتشرت فيه فتعسّرت المقاومة.

(٢٦) صيقل الإسلام، ص: ٣٤٧.

(٢٧) صيقل الإسلام، ص: ٤٢٧.

(٢٨) صيقل الإسلام، ص: ٤٣٨.

إن أخشى ما أخشاه ألا تتحمل بنية المجتمع هذا الداء الويل، لأنه يشبه بالعدو. إذ يظن من يقطع شريانه ويمصّ دمه صديقاً. ومتى عميت بصيرة المجتمع إلى هذا الحد فقلعة الإيمان إذن في خطر داهم. لذا لا قلق لي إلا هذا ولا أضطرب إلا من هذا. بل ليس عندي زمن أضيّعه في التفكير في التعب والمشاق التي أتعرض لها بنفسي، وليتني أتعرض لألف ضعف من شقائي ويسلم مستقبل قلعة الإيمان" (٢٩).

لقد كان النورسي قويّ الإيمان بالمستقبل راسخ اليقين في أن ظلام الطغيان الذي يحارب الإسلام في بلاده وفي بلاد المسلمين عامة، سينجلي لا محالة، ولذلك نجده يقول:

• "لقد تحمّلت آلامي الشخصية كلها، ولكن آلام الأمة الإسلامية سحقني.. إنني أشعر بأن الطعنات التي وجّهت إلى العالم الإسلامي، أنها توجه إلى قلبي أولاً. ولهذا تروني مسحوق الفؤاد. ولكنني أرى نوراً سيُنسينا هذه الآلام إن شاء الله" (٣٠).

فقد كان بدیع الزمان سعيد النورسي ينظر بقلب المؤمن إلى المستقبل، في تلك المرحلة المضطربة الكالحة الظلام التي كانت تركيا تمرّ بها. ولو امتدّ به العمر إلى يومنا هذا، لرأى بصيص النور يتلألأ في الأفق، ولأيقن أن بصيرته كانت كاشفة وأنّ بصره كان سديداً.



(٢٩) سيرة ذاتية، سعيد النورسي، دار النيل، القاهرة ٢٠٠٩، ص: ٤٩١.

(٣٠) صيقل الإسلام، ص: ٥١٢.



بديع الزمان النورسي يبشر بالمستقبل

قال الأستاذ بديع الزمان سعيد النورسي العالم المصلح المربي التركي الشهير في عام ١٩٠٨م: "إن الدولة العثمانية حُبلى حاليًا بجنين أوروبا، وستلد يومًا ما.. أما أوروبا فهي أيضًا حُبلى بجنين الإسلام، وستلد يومًا ما"^(٣١). ولَمَّا زار النورسي دمشق في عام ١٩١١م، ألقى حديثًا باللغة العربية في الجامع الأموي مخاطبًا العلماء وجمعاً غفيرًا من المصلين، شخّص فيه أمراض الأمة الإسلامية وعلاجاتها، (قبل الحرب العالمية الأولى بثلاث سنوات)، وعدّ منها ستة أمراض، هي:^(٣٢)

- اليأس والقنوط للذان ما زالا يجدان أسباب الحياة في نفوسنا.
 - موت الصدق في حياتنا الاجتماعية والسياسية.
 - حب العداوة.
 - تجاهل الرابطة الروحية التي تربط المؤمنين بعضهم ببعض.
 - ذبوع الاستبداد مثل ذبوع الأمراض المعدية المختلفة.
 - حصر الهمة في المنفعة الشخصية دون الالتفات إلى النفع العام.
- يقول سيّد شعراء التُّرك "محمد عاكف"^(٣٣) عن بديع الزمان سعيد

^(٣١) الملاحق، سعيد النورسي، دار النيل، القاهرة ٢٠٠٩، ص: ٣٥٢.

^(٣٢) انظر: صيقل الإسلام، سعيد النورسي، دار النيل، القاهرة ٢٠٠٩، ص: ٤٥٩-٤٦٠.

^(٣٣) شاعر الإسلام في تركيا (١٨٧٣م-١٩٣٦م)، ورئيس تحرير مجلة "الصراط المستقيم"

النورسي: "إن شكسبير وهيجو وأضرابهما لا يبلغان إلا مرتبة تلميذ بديع الزمان في الأدب والفلسفة". فلقد كانت لمجموعة "رسائل النور" التي أصدرها بديع الزمان (وعدها ١٣٠ رسالة خلال فترة زمنية تمتد إلى ربع قرن) قوة دفع شديدة للأدب التركي، وللثقافة العربية الإسلامية، ولل فكر الإسلامي المعاصر. يقول الأستاذ إحسان قاسم الصالحي (مؤلف كتاب "بديع الزمان سعيد النورسي.. نظرة عامة عن حياته وآثاره"): "إن السرّ في رسائل النور يكمن في أنها لا تخاطب فئة من دون أخرى، ولا شخصاً دون آخر، وإنما تخاطب الفطرة الإنسانية وكيونتها. فالعالم المتخصص، والأديب المتمرس يجد حاجته فيها، والشاب المتعلم يجد بغيته فيها، وكما أنها تناجي وتناغي الطفل، كذلك تخاطب المرأة برقة واضحة، وتشفي غليل الرجل كذلك، فالكل يجد فيها نصيبه وحقه، بل الكل يرتوي منها".

يربّي بديع الزمان سعيد النورسي في القارئ القدرة على معرفة الدليل ووزن الكلام المقروء والمسموع بميزان الإسلام، حيث يقول: "ليس هناك من يُوصم نفسه بالفساد، بل غالباً ما يُظهر المفسد نفسه بمظهر الصلاح والصواب. فعليكم أن تختبروا كل قول تسمعون ولا تقبلوا أي كلام دون اختبار وامتحان. فللكلام الفاسد رواج في عصرنا هذا؛ حتى كلامي لا تقبلوه على علاقته -بناء على حُسن ظنكم بي- وإنما أي كلام يظل على هامش تفكيركم حتى إذا ما نجح في الاختبار وظهر صدقه وبان معدنه الذهبي، عند ذلك احفظوه في القلوب، أما إذا كان صدأً -ومن معدن

رخيص- فاطر حوه أرضاً غير مأسوف عليه"^(٣٤).

ويقول الأستاذ بديع الزمان سعيد النورسي في إحدى رسائله التي تحمل عنوان "المناظرات" تحت عنوان "ما الذي ألقانا في غياهب الضياع؟": "سؤال: ما الذي ألقانا في غياهب الضياع وأقعدنا عن معالي الأمور؟". "الجواب: إن الحياة حركة فعالة، أما الشوق فجوادها، وهو مطية الهمة؛ فحالما تمتطي همّتكم صهوة جواد الشوق تنشّد معالي الأمور في ميادين معركة الحياة، إذا بـ"اليأس" أول ما يصادفها، هذا هو العدو الألدّ، وهو الذي يُفْتّ في قوة الهمة.. فعليكم أن تضربوه بسيف الآية الكريمة ﴿لَا تَقْنُطُوا﴾ (الزمر:٥٣). (...) ثم يشنّ "حب الظهور وميل التفوق" هجومه، هذا الميل المغرور في الإنسان يحاول التّحكم في خدمة الحق الخالصة من الحسد والمنازعة، فيهوي بضرباته على رأس الهمة ويطحرها أرضاً من على جوادها.. فعليكم أن تبعثوا إليه حقيقة الآية الكريمة ﴿كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ﴾ (المائدة:٨). (...) ثم يبرز إلى الميدان "الاستعجال" فيزل قدم الهمة ويقبلها على عقبيها بطفراته خطوات.. ترتّب الأسباب والمسببات مراحل العلل التي وضعها الله سبحانه في سننه الكونية.. فعليكم أن تحتموا منه بالخندق الأمين للآية الكريمة ﴿اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا﴾ (آل عمران:٢٠٠)"^(٣٥).

وهكذا يمضي سعيد النورسي مخاطباً القارئ في لغة روحية نافذة، وبأسلوب بالغ التأثير في النفس.

لقد اضطهد سعيد النورسي طويلاً، وعرف السجون والمنافي داخل

^(٣٤) صيقل الإسلام، ص: ٣٦٠.

^(٣٥) صيقل الإسلام، ص: ٤٠٤.

وطنه، وهو الرجل المسالم الوديع الذي لم يكن يملك من قوة سوى علمه وقلمه ولسانه، والذي كان يركز على التربية الروحية والتمسك بمكارم الأخلاق. وكان له تأثير بعيد المدى في تنشئة أجيال مؤمنة معتزة بالإسلام الحق المصفى من الشوائب والمعتقدات الفاسدة، من مختلف الفئات. وقد ساهم مساهمة فعالة في الإبقاء على جذوة الإيمان متأججة في القلوب أمام طغيان الإلحاد والانحرافات الأخلاقية وتجاهل الإسلام والإعراض عنه.

لقد صرخ سعيد النورسي أمام القاضي في إحدى محاكماته صرخته المدوية، فقال: "لو أن لي ألف روح لما ترددت أن أجعلها فداءً لحقيقة واحدة من حقائق الإسلام... فقد قلت إنني طالب علم، لذا فأنا أزن كل شيء بميزان الشريعة. إنني لا أعترف إلا بملّة الإسلام، وإنني أقول لكم وأنا واقف أمام البرزخ الذي تسمّونه "السجن" في انتظار القطار الذي سيمضي بي إلى الآخرة، لا لتسمعوا أنتم وحدكم، بل ليتناقلها العالم كله، ألا لقد حان للسرائر أن تنكشف وتبدو من أعماق القلب، فمن كان غير محرم فلا ينظر إليها: إنني متهيئ بشوق لقدومي للآخرة.. وأنا مستعدّ للذهاب مع هؤلاء الذين علّقوا في المشانق.. تصوروا ذلك البدوي الذي سمع عن غرائب إسطنبول ومحاسنها فاشتاق إليها.. إنني مثله في شوقي إلى الآخرة والقدوم إليها.. إن نفيكم إليّ إلى هناك لا يعتبر عقوبة.. إن كنتم تستطيعون فعاقبوني المعاقبة الوجدانية. لقد كانت هذه الحكومة تخاصم العقل أيام الاستبداد، والآن فإنها تعادي الحياة، وإذا كانت هذه الحكومة

هكذا؛ فليعيش الجنون، وليعيش الموت، وللظالمين فلتعش جهنم..^(٣٦).
وتوفي بديع الزمان سعيد النورسي في ٢٥ رمضان ١٣٧٩ هـ الموافق
٢٣ مارس ١٩٦٠ م. لقد كان نسيج وحده، ونموذجاً فريداً بين علماء
الإسلام ودعاته ومرّبيه ومصلحيه في هذا القرن لا يوجد من يضاهيه بله
يدانيه أو يماثله.



^(٣٦) صيقل الإسلام، ص: ٤١٠؛ سيرة ذاتية، سعيد النورسي، دار النيل، القاهرة ٢٠٠٩،
ص: ١٢٦.



سعيد النورسي يخاطب العصر بخمسين لغة

ترجمت "رسائل النور" -لبديع الزمان سعيد النورسي- إلى أكثر من خمسين لغة عالمية، من الإنجليزية إلى الكورية، ومن الروسية إلى الصينية، ومن الألمانية إلى الإسبانية، ومن الفرنسية إلى الفارسية؛ إلى غير هذه اللغات. وطبعت من هذه الرسائل مئات الآلاف من النسخ، سواء في مجموعة كاملة تحت عنوان "كليات رسائل النور"، أو في مجموعة مختارة من الرسائل، أو في رسالة واحدة. ورسائل النور هي مجموعة من المقالات (بالمعنى التراثي القديم للمقالة، وليس بالمعنى الصحافي الحديث) تعالج موضوعات مختلفة من منظور إسلامي، فيها الشرح والتفسير، وفيها التحليل والمعالجة، وفيها اقتحام لمسائل عويصة تتصل بالعقيدة والإيمان وبالبعث والحساب وبالآخرة وبالجنة والنار.. كتبت بأسلوب في غاية الإشراف والشفافية والعذوبة والإبهار، يتراوح بين اليسر والبساطة، وبين العمق والتألق في سماء المعاني الدقيقة، مع جمال العرض، وحرارة تناول. وهي جميعها تعبق بأريج الإيمان والشوق إلى الله، وتتضوع بطيب الصدق والإخلاص.. يقرأها المرء فإذا به يرتقي روحياً إلى الأعالي، ويسمو بقلبه ووجدانه إلى حيث الجمال والجلال والبهاء والنقاء.

وتعالج رسائل النور قضايا دقيقة بأسلوب أقرب إلى فهم القارئ

المتوسط، وتبحث المسائل المعقدة بروح شفافة، وب عقل مستنير، وبلغه صافية وضّاءة. وقد أحسن الأستاذ إحسان قاسم الصالحي صنعا بترجمته لكليات رسائل النور إلى اللغة العربية. لقد صدرت الترجمة في تسعة مجلدات كبيرة مع المجلد العاشر الخاص بالفهارس التي أنجزها باحث عراقي متمكن. وكان سعيد النورسي يكتب باللغة التركية، ولكنه كتب بعض الرسائل باللغة العربية، بل كتب تفسيراً لأجزاء من القرآن الكريم باللغة العربية، هو آية في الدقة والعمق والغوص في المعاني الدفينة في أي التنزيل.

وتقوم مؤسسة إسطنبول للثقافة والعلوم بترجمة رسائل النور إلى اللغات العالمية، وتطبع منها نسخاً كثيرة في عديد من العواصم. أما الترجمة العربية فقد طبعت في القاهرة. وصدرت حتى الآن طبعتان من كليات رسائل النور باللغة العربية.

زرتُ مؤسسة إسطنبول للثقافة والعلوم، والتقيت بالدكتور فارس قايا رئيس لجنّتها التنفيذية، حيث رافقني في جولة عبر أقسام المؤسسة، ومنها القسم الخاص بتراث بديع الزمان النورسي، وقاعة المطالعة الملحقة به، والمكتبة التي تضم المؤلفات التي نشرت عن صاحب رسائل النور، والكتب التي تحتوي على البحوث والدراسات التي قدمت إلى المؤتمرات العالمية حول فكر النورسي التي تنظمها المؤسسة مرة كل ثلاث سنوات، إلى جانب الكتب التي تضم البحوث والدراسات التي أُلقيت في الندوات التي تقيمها المؤسسة في مختلف أنحاء العالم حول دراسة قضايا فكرية تتصل بهذه الرسائل، ومنها ندوات كثيرة استضافتها بعض الجامعات المغربية خلال العقدين الأخيرين.

لقد كَتَبَ سعيد النورسي رسائله في ظروف بالغة الشدة والقسوة، وتحت حصار كثيف ضربته السلطات حوله، في زمن مصطفى كمال أتاتورك الذي أشهر الحربَ ضد الإسلام، وعمل على تطبيق سياسة "تجفيف منابع الإيمان" في تركيا. فكان هذا الطاغية هو "الرائد" في هذا المجال قبل الرهط اللثيم الذي جاء بعده في عدد من البلدان العربية، ورفعوا شعارهم الأسود "تجفيف منابع الإيمان"، حتى جَفَّفَ الله حياتهم. ولذلك كان الهمَّ الأول الذي شغل النورسي هو حماية الإيمان في قلوب مواطنيه الأتراك، وتقوية ركائزه، وقطع دابر الكفر والفسوق والعصيان ضدَّ شريعة الله، وإنقاذ الإنسان التركي المسلم من السقوط في مهاوي الضلال والتهيه والضياع وفقدان الهوية الروحية والثقافية والحضارية. لقد نذر النورسي حياته كلها لأجل سعادة الإنسانية، فظل يقرأ مباشرة من كتاب الكائنات "القرآن الكريم" لاستخراج العلاج الناجع لخلاص الإنسانية والانتقال بالناس من الإيمان التلقيني إلى الإيمان التحقيقي.

في تلك الفترة الأولى من النضال الفكري الذي كان سعيد النورسي يخوضه بثبات ورباطة جأش، كان العالم العربي غارقاً في بحر من الأزمات المتراكمة؛ منها الأزمة الوطنية نتيجة للاستعمار والاحتلال وهيمنة الأجنبي، والأزمة الروحية التي أفرزتها رحلة البحث عن اليقين والثقة بالنفس وحماية الذات، والأزمة السياسية التي تمثلت في الخضوع للمخططات الاستعمارية التي فرضت على العرب والمسلمين، والأزمة الاقتصادية والاجتماعية الناتجة عن سوء الأحوال وضعف ذات اليد والفقر والحاجة والأمراض والأمية. فهي موجات متلاطمة من الأزمات التي كان العرب والمسلمون عموماً -في تلك الفترة- غارقين فيها إلى الأذقان،

ذاهلينَ عن أنفسهم، تاركينَ الساحةَ للمنصرين (لا أقول المبشرين) من كل المذاهب المسيحية، وللملاحدة من أبناء جلدتهم الذين باعوا أنفسهم للغرب الصليبي المتآمر على الأمة العربية الإسلامية، وللخونة والمرتزة والمنافقين الذين باعوا الوطن، وداسوا على مقدساته، ورضوا أن يعيشوا عبيداً للاستعمار.

وكانت الحرب الضروس المشهورة ضد الإسلام في تركيا، خلال الفترة -التي تبدأ من أواخر العشرينيات إلى مطلع الخمسينيات من القرن الماضي- تجري في منأى عن العالم العربي الإسلامي، وتحت تعقيم كامل، وبمباركة من الغرب الذي رأى في السياسة الاستبدادية القمعية التي كان ينهجها مصطفى كمال أتاتورك، ما يحقق أهدافه، ويمهد له الطريق نحو فرض الهيمنة الكاملة على الشعوب العربية الإسلامية والإجهاز على روحها وإطفاء جذوة الإيمان فيها.

في تلك الأجواء الملبدة بسحب الكفر، وفي تلك المرحلة الحرجة من تاريخ تركيا التي أعقبت سقوط الدولة العثمانية وإلغاء الخلافة وإعلان الارتقاء في أحضان الغرب -بل بين أرجل الغرب- كتب سعيد النورسي رسائله التي كان يتم تسريبها إلى مختلف المناطق في تركيا، بطرق في غاية التعقيد يسرها الله له، فانتشرت وتداولتها الأيدي في المدن والقرى، وأقبل على قراءتها والتمعن فيها والاهتداء بها الناس من مختلف طوائف الشعب، وكأنها كانت مشكاة أنارت العقول والقلوب.

لقد كان الأثر الذي أحدثته رسائل نور في المجتمع التركي بعيد الغور قويَّ النفاذ واسع الانتشار. ويمكن القول إن هذا الأثر العميق في تحويل تيارات الإلحاد إلى تيار الإيمان والعودة إلى الجذور، لا تضاهيه

الآثار التي أحدثتها الأفكار الدينية والإصلاحية في أي بلد عربي وإسلامي آخر في تلك المرحلة. ولذلك كانت السلطات تدرك جيداً مدى التأثير الذي كان للرجل الأعزل الضعيف البنية الذي ينأى بنفسه عن الاختلاط بالناس والمحاصر في المنافي أو المعتقل في السجون المتنقل من سجن إلى آخر. ولكن سعيد النورسي كان الله معه حيثما انتقل، وكانت رسائله نعمة من الله، بددت ظلمات الكفر، وحاربت الإلحاد حتى صرغته، وتصدّت للغزو الفكري والثقافي الذي يستهدف روح الشعب التركي وهويته وخصوصياته الثقافية والحضارية.

ورسائل النور عبارة عن ١٣٠ رسالة مكتوبة باللغتين التركية والعربية كتبها بديع الزمان سعيد النورسي؛

- يضم مجلد "الكلمات" ثلاثاً وثلاثين رسالة، توجز الرسائل التسع الأولى منها معاني العبادة والعقيدة ونظر المؤمن إلى الدنيا، ووظيفة الإنسان في الوجود.

- ويضم مجلد "المكتوبات" ثلاثاً وثلاثين رسالة تستهل بأجوبة عن أسئلة حول حياة الخضر عليه السلام، وحكمة الموت ومخلوقيته وموقع جهنم، ثم سرد لمشاهد من حياة المؤلف وتأملاته الإيمانية في الكون.

- ويشتمل مجلد "اللمعات" على ثلاثين رسالة تستهل بالدروس المستخلصة لحياتنا اليومية من مناجاة سيدنا يونس وأيوب عليهما السلام، ثم بيان أن السنة النبوية مراقبة ومنهاج، ورسالة في حكمة الاستعاذة من الشيطان.

- ويضم مجلد "الشعاعات" خمس عشرة رسالة تتناول جمال الكون ومزايا الإنسان وكيف أن هذا الجمال لا يظهر إلا بالتوحيد، ورسالة

المناجاة ضمن جولة في أرجاء الكون، ثم اللواذ إلى كنف الرحمن في مراتب ﴿حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ (آل عمران: ١٧٣).

• وينفرد مجلد "إشارات الإعجاز في مظان الإيجاز" الذي ألفه بالعربية، وهو تفسير قيّم لفاتحة الكتاب وثلاثين آية من سورة البقرة، يبين عبارات موجزة الإعجاز النظمي للقرآن الكريم، أي جهة مناسبة الآيات بعضها ببعض، وتناسب الجمل وتناسقها.

• ويشتمل مجلد "المنوي العربي النوري" على اثني عشرة رسالة ألّفت باللغة العربية، وهذه الرسائل بمجموعها ترشد إلى دروب النفس الأمّارة بالسوء، وتكشف من دقائق مسالكها وخبايا دسائسها، وتضع العلاج لأمراضها المتنوعة.

• ومجلد "الملاحق في فقه دعوة النور" هو عبارة عن مجموعة رسائل جرت بين النورسي وطلّابه الأوائل؛ وطابعها العام توجيهي إرشادي يبين أهمية رسائل النور، ومنهجها في الدعوة إلى الله سبحانه في هذا العصر.

• وأما مجلد "صيقل الإسلام" فيضم مجموعة من الرسائل في علم المنطق، بالإضافة لرسالتين باللغة التركية تسلطان الضوء على الأوضاع الاجتماعية والسياسية في فترة ما قبل الحرب العالمية الأولى.

• ومجلد "سيرة ذاتية" مستخلصة من جميع مؤلفاته ومرتبّة حسب التسلسل التاريخي، جمعها وربّتها الأستاذ إحسان قاسم الصالحي. وهي عمل توثيقي تاريخي بالغ الأهمية.

• ومجلد يتضمن فهرس متنوع لرسائل النور.

تساءلت مع نفسي أثناء زيارتي لمؤسسة إسطنبول للثقافة والعلوم المتخصصة في دراسة فكر النورسي ونشر رسائله؛

- لماذا هذا الاهتمام العديم النظير بأثار بديع الزمان سعيد النورسي؟
- ومن أين يأتي هذا الإقبال العزيز المثل على رسائل النور من مختلف الطبقات وفي شتى الأقطار؟

• وهل قراءة رسائل النور والتأمل فيها والاقتداء بها والتجارب معها والاعتماد عليها في الاهتداء إلى حقائق الإسلام، هل ذلك كله يُغني عن الاطلاع على غيرها؟

فوجدتني أخلص إلى النتيجة التالية: إن هذه الرسائل النورانية المكتوبة بالإخلاص، والمضمخة بالصدق، والصادرة عن هذا القلب العاشق للذات الإلهية والمحترق في عشقه والمعذب بالتفكير في أحوال المسلمين بعامة وأوضاع الإسلام والمسلمين في تركيا بخاصة، هي سفينة النجاة التي تقود إلى برّ الإيمان والأمان. ولذلك كان أثرها عظيماً؛ ليس في تركيا فحسب، وإنما في جلّ الأقطار التي وصلت إليها رسائل بديع الزمان سعيد النورسي.

ولستُ أبالغ إذا قلتُ إن هذا الرجل الذي لم يكن يقبل أن يناديه أحد بأيّ لقب، والمعروف عند تلامذته بلقب "الأستاذ"، هو حالة فريدة من نوعها بين الرجال المخلصين الذين نذروا أنفسهم لنشر الإسلام الحق بتقوية الإيمان، ومحاربة الإلحاد، والوقوف في وجه تيارات التغريب والحدائث التي تلغي الدين من حياة الفرد والمجتمع، وتقاطع قطيعة مطلقة المقدسات والثواب والتراث وتمحو الهويات. ولذلك فإن العودة إلى رسائل النور والغوص في أعماقها، ينعش الروح ويشرح الصدر ويقوي في الإنسان إرادة الخير والاعتزاز بالإسلام عقيدةً وهويةً ومنهجاً في الحياة. فهذه الرسائل تقود إلى رحاب القرآن الكريم ليعيش الإنسان

المؤمن في ظلاله.

في الرسالة التي وجهها الأستاذ محمد فتح الله كولن إلى المؤتمر العالمي العاشر لمؤسسة إسطنبول للثقافة والعلوم، الذي عقد في سنة ٢٠١٠م، قال: "إن كل ما يصبو إليه مثل هذا الرجل الرباني هو نقل كل روح إلى حياة أبدية، وإسداء إكسير الخلود إلى كل أحد.. فهو في أغلب الأحيان يخطط لسعادة الآخرين، ولا سيما أمته، إذ يتلوى مما تعانيه من بؤس وشقاء.. فهو دومًا يؤثر الآخر على نفسه، عفيف منكر لذاته، ذو وجدان ينبض بروح النبوة".

هذه الروح الشفافة وجدتها تغمر مؤسسة إسطنبول للثقافة والعلوم عند زيارتي القصيرة لها ذات يوم ممطر، ووجدت كل ما شاهدته ينطق بالشعار الذي رفع في المؤتمر العالمي التاسع للمؤسسة "العلم والإيمان والأخلاق لأجل مستقبل أفضل للإنسانية"، وهو الشعار الذي يلخص الأفكار الإيمانية الرائدة البناءة التي طرحها النورسي في مؤلفاته، وعاش حياته مبشرًا بها وداعيًا قومه، بل المسلمين كافة والإنسانية جمعاء، إلى تبنيتها والعمل بها.

إن هذا الرجل الرباني القدوة يخاطبنا اليوم في هذه المرحلة الدقيقة التي يجتازها العالم العربي الإسلامي، بالحكمة البالغة ومن خلال رسائله، حيث يقول: "كلما شاب الزمان شبَّ القرآن وتوضحت رموزه" (٣٧).



(٣٧) المكتوبات (المكتوب الثالث والثلاثون، نوى الحقائق)، سعيد النورسي، ص: ٥٧٩.

الفصل الثاني:

فتح منير



اعتذار إلى محمد فتح الله كولن

أعترف -بادئ ذي بدء- أنني لم أكن أعرف الأستاذ فتح الله كولن قبل ستّ أو سبع سنوات. فما سبق لي قط قبل ذلك أن وقعت على كتابٍ من كتبه، أو قرأتُ مقالاً من مقالاته، أو وقفتُ على اسمه في مصدر من المصادر، أو حتى سمعتُ عن اسمه في وقت من الأوقات. كانت مجلة "حراء" هي مصدر معرفتي بالأستاذ كولن، حين وصلني عدد من أعداد سنتها الأولى في أول عهدي بها، لأجد نفسي أمام كاتب من طراز راق، لم أتردد في أن أصفه يومئذ بأنه مفكر عالي المقام متميز لا عهد لي بمثيل له منذ أن امتدت الأسباب بيني وبين القراءة قبل قرابة خمسة عقود وإلى اليوم. كانت قراءتي للمقال الافتتاحي في مجلة "حراء" نقطة البداية في اتصالي الفكري والروحي بالأستاذ كولن، حيث أضرم ذلك المقال في أعماقي شعلَةً ما لبثت أن توهجت حتى أضاءت أقطار نفسي، فصرتُ أترقّب وصول مجلة "حراء" لأغذي عقلي وأمتع نفسي بقراءة مقاله. ثم طففت أبحث عن مؤلفاته، فكان أول ما تعرفت عليه منها كتابه "النور الخالد: محمد ﷺ مفخرة الإنسانية"^(٢٨) الذي التهمته، حتى لا أقول قرأته، بل أحبذ أن أقول إنني هضمته كما يهضم الجائع ما يقدم إليه على المائدة

(٢٨) النور الخالد: محمد ﷺ مفخرة الإنسانية، فتح الله كولن، دار النيل، القاهرة ٢٠٠٥.

من أطيب الطعام. فقد نقلني هذا الكتاب الجميل العذب المذاق الرائق المشرب، نقله بعيدةً إلى الأجواء المعطرة بأريج النبوة، وكأنني حديث عهد بالقراءة في السيرة النبوية الشريفة، وكأن العشرات من المؤلفات في السيرة التي صَنَفها القدامى من علماء الأمة والمحدثون والمعاصرون التي قرأتها، لم تكشف لي الحجب عن حياة رسول الله ﷺ. لقد وجدت في ذلك الكتاب ما لم أجده في "سيرة ابن هشام"، وفي "الروض الأنف" للسهيلى، وفي "الشمال" للترمذي، وفي "السيرة الحلبية" لنور الدين الحلبي، وفي عشرات الكتب حول السيرة التي دَوَّن عناوينها الدكتور صلاح الدين المنجد في "معجم ما أُلِّف عن رسول الله ﷺ" الذي صدر في مجلد كبير. وليس في ذلك انتقاصٌ من القيمة العلمية لهذه النفائس من المصنفات، وإنما لجدة المنهج الذي اعتمده الأستاذ كولن وتميّز به، وللروح الشفافة المجنحة التي تطبع هذا الكتاب، ولجمعه في إهاب واحد بين حرارة الإيمان وعمق الفكرة والغوص في بحار المعاني السامية لاستخراج اللآلئ ولاستخلاص الدروس، وبين جمال العرض وإحكام السبك مع إشراق اللغة التي أجاد الأستاذ أورخان محمد علي ترجمتها إلى عربية راقية رائعة رفيعة. بسبب ذلك ازداد يقيني في أن الأستاذ كولن نسيج وحده حقيقة لا مجازاً، وأن كتابته عن "النور الخالد: محمد ﷺ" مفخرة الإنسانية، نمطٌ فريدٌ يثير الاهتمام، ويستحق التقدير، ويستدعي متابعة ما يخطه يرّاع صاحبه من كتابات.

وكذلك كان شأني -ولا يزال- مع مؤلفات الأستاذ محمد فتح الله كولن، فقد أدركتُ مع مواصلة القراءة فيها، والتعمق في فهم الرسالة التي يحملها والبلاغ الذي يُوصله من خلالها إلى القارئ، أن هذا المفكر

ليس كغيره من المفكرين، وأن المهمة المشرفة والرسالة المشرقة اللتين نذر حياته لهما ويضطلع بهما، تعلو قيمتهما وتشمخ ذروتها إلى القمة، وأنهما ليستا من قبيل المهام الفكرية والرسالات الثقافية التي يقوم بها ويتحمل أعباءها جمهرة من العلماء والمفكرين والدعاة والمصلحين والمجددين على تعاقب الأزمان. وأيقنتُ بسبب من ذلك كله، أن القدر قد اذخر هذا المصلح المجدد للفكر الباني للنهضة، ليقوم بما يحتاج إليه المجتمع من نفخ في روح العمل، ومن حفزٍ للهمم، ومن إنهاضٍ للأمة، ومن إنقاذٍ لروحها، ومن دفع بها إلى الأمام.

جاءت صلتني الأولى بالأستاذ محمد فتح الله كولن بعد سنوات قليلة من صلتني بالأستاذ بديع الزمان سعيد النورسي، الذي بدأتُ قراءتي لكتاباته في العقد السابع من القرن الماضي، حين وقع بين يدي كتيب نشر في دمشق، يضم بعضاً من رسائل النور التي ترجمها الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي، وقبل فترة طويلة من قراءتي للترجمة الوافية التي كتبها الأستاذ إحسان قاسم الصالحي للمصلح المجدد الأستاذ النورسي. ثم مضت سنوات قبل أن تيسر لي الأسباب لقراءة كليات رسائل النور التي ترجمها الأستاذ الصالحي، التي وقع في يدي منها في بادئ الأمر، مجلد واحد، قرأته وتعمقت في فهمه حتى أحسبني أنني تشربت روح الكاتب. ثم بحثتُ عن المجلدات الأخرى حتى توفرت عندي المجموعة الكاملة، ففرغتُ لقراءتها، وأقبلتُ على دراستها، ولم تفارقني كليات رسائل النور منذ ذلك الحين وإلى يومنا هذا، أحتفظ بها في غرفة النوم بحيث تكون في متناول اليد، وليس في غرفة المكتبة، أعود بين الفينة والأخرى إلى القراءة فيها، والاستزادة من الاعتراف من مناهلها العذبة،

فأشعر بالانتعاش في الروح، وبالسكينة في النفس، وبالطمأنينة في القلب، وبذلك أكون قد جمعت بين الحسنيين وفزت بالفضلين والحمد لله؛ رسائل سعيد النورسي ومؤلفات فتح الله كولن. وقد وصلت بعد الدراسة المعمقة لفكر الرجلين القدوتين، ودوام القراءة في كتاباتهما، أنهما يحملان رسالة واحدة ويتكاملان في الفكر والتوجه والمقصد الشريف؛ فالأول هو المؤسس الرائد لخدمة الإيمان والقرآن والنافخ في روح الأمة، والثاني هو باني النهضة والمفكر ذو الرؤية الشفافة والبصيرة النافذة ومترجم أفكار الأول إلى أفعال تنفيذية وأعمال تطبيقية، على الرغم من أنه لم يجمع بينهما لقاء الجسد، ولكن ربط بينهما ائتلاف الروح، ووشائج الإيمان، والعزيمة المتأججة القوية لإنقاذ المجتمع من مهاوي الضلال والضياع والتهيه، ولبناء الإنسان العارف لربه القادر على المشاركة في تطوير الحياة، وللنهوض بالوطن القوي المتماسك الطامح إلى المعالي.

لقد أدركت عن وعي وبعد دراسة متعمقة، أنّ مكانة الأستاذ محمد فتح الله كولن من بين المفكرين المستنيرين المجتدين في العالم الإسلامي -بصورة إجمالية- دونها أيّ مكانة يتبوأها مفكر ينتمي إلى المدرسة الإسلامية، شارك في إغناء الحياة العقلية وفي إنتاج منظومة الأفكار الإحيائية، وفي إنشاء المدارس التجديدية، وفي تأسيس الحركات الإصلاحية؛ فمنذ جمال الدين الأفغاني، ومحمد عبده، وعبد الرحمن الكواكبي، وحسين الجسر، ومحمد رشيد رضا، إلى حسن البنا، وعبد الحميد بن باديس، والطاهر بن عاشور، والبشير الإبراهيمي، وعبد العزيز الثعالبي، وأبي الحسن عليّ الندوي، وأبي الأعلى المودودي، وعلال الفاسي، وعبد الله كنون، مروّراً بمحمود شلتوت، ومحمد مصطفى

المراغي، ومحمد حسين الخضر وغيرهم من هذه الكوكبة المضيئة والأعلام الشامخة، لم يعرف الفكر الإسلامي تلك الهزة القوية الضخمة المججلة والمزلزلة التي عرفها عند محمد فتح الله كولن، والتي أحدثت هذه الحركة الفؤارة بالحياة الدافقة بالعطاء والدافعة إلى التغيير العميق الواسع الشامل هذا، وإلى تجديد البناء انطلاقاً من بناء الإنسان الصالح المصلح لنفسه ولإخوانه ولوطنه، والذي هو الأساس الصلب في تنمية المجتمعات من النواحي كافة.

إن الذي جمع بين تلك النخبة النابغة المتميزة، هو الاشتغال بالفكر، والعمل في حقول التربية والتعليم، وبالكفاح الوطني بالنسبة لبعض منها، حيث اجتهدت وجاهدت وضحت وأبلت البلاء الحسن، كل من موقعه وحسب جهده واجتهاده وعطائه وتأثيره في محيطه، ولكن أحداً منهم لم يُحدث في محيطه الخاص وفي محيطه العام ببلده -بصورة عامة- وفي دوائر كثيرة خارج الوطن الذي ينتمي إليه، ما أحدثه محمد فتح الله كولن من تغيير واسع وعميق في الأفكار، وفي الرؤى، وفي المواقف الفردية والجماعية، وفي حركة المجتمع على شتى المستويات.

لقد كان هؤلاء المفكرون الرواد -وجميعهم موضع احترام وتقدير عظيمين- يعملون في محيط لم يكن قد انفصل عن الجذور وتكرر نهائياً للأصول، على الرغم مما كانت تعرفه البلدان الذين ينتمون إليها من ظروف الاحتلال الأجنبي الذي فرض ثقافته ولغته وسياسته على الشعوب العربية التي كانت رازحةً تحت وطأته، مما جعل هؤلاء المفكرين والدعاة والمصلحين وقادة الرأي والزعماء السياسيين، يصرفون اهتمامهم للدعوة الإصلاحية، وللعمل الفكري لتنوير العقول، وللبث الحمية وإيقاظ الهممة

في النفوس. وكان عملهم في هذا المجال الحيوي، عظيم النفع والفائدة يُحمد لهم، وهو المجال الذي يلتقون فيه مع محمد فتح الله كولن، إذا نظرنا إلى الموضوع من الزاوية الفكرية؛ أما إذا تجاوزنا ذلك كله إلى ما هو أشمل مجالاً وأرحب أفقاً وأعمق تأثيراً، فإننا سنجد أن كولن يتميز عنهم جميعاً دون استثناء، لأن المحيط الذي عمل فيه أول عهده بالحركة في مضمار التوعية الدينية والتوجيه الفكري، كانت طبيعته تختلف كلياً عما عرفته البلدان العربية جميعاً، وذلك نتيجةً للسياسة التغريبية الكاسحة التي سادت تركيا، والتي تركزت على إفساد روح الشعب، واغتصاب هويته، واقتلاع جذور أصالته، مما جعل المهمة التي تصدّى لها فتح الله كولن بالغة الصعوبة محفوفة بالمخاطر، لأنها بطبيعتها مواجهةً مع تحديات تفوق في ضراوتها وشراستها وعنفوانها ما عرفه العرب والمسلمون جميعاً في شتى أقطار الأرض خلال القرنين الماضيين من تحديات، وواجهوه من صعوبات، وعاشوه من محن، مما كان يقتضي تجديد البناء من الأساس، وتجاوز الأقوال إلى الأفعال، والانتقال من التنظير الفكري إلى التطبيق العملي، بما يتطلبه ذلك من ربط الفكر المجتهد بالعمل المسدّد الذي يشارك الناس في إنجازه لمصلحتهم التي يسعون إليها.

وليس معنى ذلك أن كولن يفضل من سبقه ومن عاصره من النواحي الفكرية والملكات العقلية والقدرات النفسية، فلسنا نزكي على الله أحداً، ولكن القصد هو أنه يتميز عنهم -حتى لا أقول يفضلهم- بالمنهج الذي اعتمده، وبالخطاب الذي استعمله، وبالوسائل التي استخدمها، وبالإنجازات التي حقّقها، وبالأبعاد التي وصل إليها، وبالأفاق التي انفتحت عليها؛ بحيث أصبح العمل الذي ينهض به -ولا يزال، بارك الله في عمره-

مثالاً عزيزَ النظر للعمل النافع الجادّ القائم على أساس الدين الحنيف، والفهم السليم لمقاصده، والإدراك الواعي لمقتضيات التطور، والتكيف المتوازن مع المتغيرات، والانتهاج للسبل القويمة والمأمونة لبلوغ الغايات النبيلة التي تخدم المجتمع، وترتقي بالإنسان، وتصنع الحضارة. فمن المزايا التي ينفرد بها الأستاذ محمد فتح الله كولن أنه يمتلك شروط التفكير الحركي، لا بالمفهوم التنظيمي السائد المتداول، ولكن بالمفهوم الحضاري الراقي؛ فهو مفكر حركي بهذا المفهوم، فكره منتج، وحركته فاعلة ومؤثرة في الواقع المعيش، لا في الواقع الافتراضي، لأنه واقعيٌّ في تفكيره، وموضوعيٌّ في رؤيته إلى الأمور، وطبيعيٌّ في تعامله مع مَنْ -وما- حوله، وتلك درجة رفيعة ارتقى بها كولن إلى مصاف القادة الفكريين المجددين المصلحين المربّين للناس الناهضين بأحوالهم العاملين على تطوير أوضاعهم نحو الأفضل والأكرم.

إن تلك هي القواعد التي تقوم عليها حركة "الخدمة" التي تعدُّ بكل المقاييس نموذجاً فريداً في التنمية الذاتية الجامعة المتعددة المجالات على صعيد العالم الإسلامي -إن لم يكن على الصعيد الدولي- للحركة المجتمعية المتكاملة والفاعلة والمتفاعلة والمبدعة للحلول التي تعالج مشكلات المجتمع والمنتجة للمنافع التي تفيد الناس في دنياهم وأخراهم، والتي تعتمد أساساً على بناء الفرد وتربية الجماعة وتزكيتهما، وبث روح التطوع والتنافس في البذل والعطاء والتسابق في أعمال الخير، وتقوية الانتماء إلى الوطن والعمل على ترقّيته ونمائه وازدهاره.

إن واعظاً دينياً موظفاً في الحكومة، يبدأ حياته العملية بداية جد متواضعة، ويواظب على تطوير نفسه بهمة عالية وعزيمة قوية، ويستطيع

أن يغيّر في محيطه وفي بيئته على هذا النحو الذي أحدث حركة غير مسبوقة تجاوب معها البسطاء، ووثق فيها القادرون على العطاء، حتى استوت على عودها، ونمت وترعرعت انطلاقاً من المدرسة المتواضعة ولكنها المتميزة، التي ما لبثت أن أصبحت نموذجاً راقياً للتربية البانية والتعليم المنتج، فتشعبت وامتدت فروعها ودنت قطوفها. إن هذا الواعظ الديني الذي بدأ حياته موظفاً في سلك الوعاظ الدينيين التقليديين، الذي نجح في تغيير المجتمع الذي يعيش فيه، وأن يقلب موازين القوى الفكرية والاجتماعية في بلاده، لهو مثالاً نادر للرجل القوي بإيمانه، والقوي بفكره، والقوي بالعمل الذي نهض به، والقوي بالقلوب التي التفت حوله والتي دانت له بالمحبة وبالإخلاص وبالثقة، حتى استطاع أصحابها أن يحققوا من الإنجازات القائمة في الأرض - وليست المتوهمة والمتخيلة - تحت قيادته الروحية وريادته الفكرية، ما جعل من جماعة الخدمة أرقى الجماعات القوية المتماسكة التي يجمع بينها حب الإسلام، وحب الخدمة لصالح الناس ولفائدة المجتمع، في غير ما جلبة أو ضوضاء، أو شعارات أو تنظيمات من قبيل ما نعرفه نحن في بلادنا العربية.

من أجل ذلك كان الأستاذ محمد فتح الله كولن نسيج وحده من بين جمهرة المفكرين والدعاة والمصلحين والمجددين والمشتغلين بالقضايا العامة التي تخدم مصالح الناس أجمعين.

في تقديمه للطبعة الجديدة لكتاب "المثنوي العربي النوري" للأستاذ بديع الزمان سعيد النورسي، كتب الأستاذ محمد فتح الله كولن قائلاً: "لو أن بديع الزمان حظي بدعم بضع مئات من المثقفين وهو ينشر رسائله في أرجاء البلاد، ووجد منهم سنداً لأفكاره، فلربما كنا من أغنى الأمم

وأكثرها مدنية، ومن أقدرها على حل المشاكل التي تتعرض لها، ولكُنَّا دخلنا المرحلة الحالية منذ ذلك الوقت (أي منذ بداية القرن العشرين) ولَمَّا جابهتُنا المشاكل الحالية العديدة. ومع كل هذا فنحن نحمل أملاً كبيراً، لأننا نرى أن الذين ينظرون إلى أمتنا وكأنها فقدت كل جذورها المعنوية، هم على خطأ كبير.. صحيح أننا تأخرنا مثل غيرنا من الأمم الأخرى وضعفنا، فليس في وسع أحد إنكار هذا، ولكن ليس في وسع أحد أيضاً أن ينفي قدرتنا على النهوض ومتابعة التقدم مرة ثانية... فلقد بدت أنوار اليقظة والانتباه والحيوية تلتمع في أرواحنا كأمة بدلاً من روح الكسل والخمود؛ إذ بدأ دفء الحياة ونبض النشاط والحيوية يتسللان إلى أرواحنا. إذن فلا شك أن أيام الربيع المشرقة الخضراء على الأبواب" (٣٩).

إن ما لم يجده بديع الزمان سعيد النورسي أمامه، وجده فتح الله كولن متاحاً بين يديه، فهو الذي أوقد شعلة الأمل، وبث روح الحياة في الأرواح حتى صارت تركيا التي ترفرف على أرجائها رايات الخدمة، قبلة للمؤمنين المتطلعين إلى الإصلاح على أساس الدين والمتشوقين إلى التقدم تحت راية الإيمان والقرآن.

ولأن الأستاذ محمد فتح الله كولن هو صاحب هذه الحركة الحضارية، فإنني أعتذر إليه، بسبب تقصيري في معرفته، وتأخيري في اللقاء الروحي والفكري به.



(٣٩) المشنوي العربي النوري، سعيد النورسي، دار النيل، القاهرة ٢٠٠٩، ص: ١٣ (تقديم الأستاذ فتح الله كولن).



محمد فتح الله كولن.. الرجل الظاهرة^(٤٠)

اختارت المجلة الأمريكية "السياسية الخارجية" (FP: Foreign Policy) المفكر ورجل الإصلاح والتجديد في تركيا الأستاذ محمد فتح الله كولن ضمن قائمة المائة شخصية عامة في القمة الأكثر تأثيراً في العالم. وكانت جامعة الدول العربية قد احتضنت في قاعاتها الكبرى في شهر أكتوبر الماضي (١٩-٢١ أكتوبر ٢٠٠٩م)، مؤتمراً دولياً حول موضوع "مستقبل الإصلاح في العالم الإسلامي: خبرات مقارنة مع حركة فتح الله كولن التركية"^(٤١). وبعد ذلك بفترة قليلة، عقدت في العاصمة الأردنية عمان، ندوة دولية حول الفكر الإصلاحي لدى محمد فتح الله كولن^(٤٢). وقبل يومين فرغت من قراءة رواية جديدة صدرت في القاهرة عن دار النيل، للكاتب المغربي الأستاذ فريد الأنصاري المرحوم، تحت عنوان "عودة الفرسان: سيرة محمد فتح الله كولن رائد الفرسان القادمين من وراء الغيب"^(٤٣). وهي في الواقع ليست رواية بالمفهوم الأدبي المتداول،

^(٤٠) جريدة "العالم" المغربية، ١٠ مارس ٢٠١٠.

^(٤١) مستقبل الإصلاح في العالم الإسلامي: خبرات مقارنة مع حركة فتح الله كولن التركية، ١٩-٢١ أكتوبر ٢٠٠٩، جامعة الدول العربية، دار النيل، القاهرة ٢٠١١.

^(٤٢) عنوان الندوة: "رؤى معاصرة للإصلاح الإسلامي ودورها في تعزيز السلام العالمي، تجربة فتح الله كولن التركية نموذجاً" ١٦ يناير ٢٠١٠.

^(٤٣) عودة الفرسان: سيرة محمد فتح الله كولن، فريد الأنصاري، دار النيل، القاهرة ٢٠١٠.

ولكنها سيرة مفصلة لمراحل من حياة الأستاذ محمد فتح الله كولن الذي خرج من تحت معطف الأستاذ سعيد النورسي الذي عاش في النصف الأول من القرن العشرين، وقام بعمل فردي بالغ الأهمية عظيم النفع كان له الأثر العميق في الخروج بتركيا من مرحلة كانت الدولة فيها تنشر الإلحاد وتحارب الإسلام وتعادي القرآن واللغة العربية والحرف العربي والشرعية الإسلامية بصورة رسمية، إلى مرحلة جديدة استرجع فيها الشعب التركي هويته الإيمانية، حتى إذا جاء محمد فتح الله كولن مع بداية الستينيات من القرن الماضي، وأحدث في المجتمع التركي حركة إيمانية ذات امتدادات اجتماعية وتعليمية وثقافية وإعلامية، تولدت عنها مؤسسات اقتصادية وإنمائية تخدم الأهداف الإيمانية الإصلاحية التجديدية، على نحو لا مثيل له في الدول العربية بل في العالم الإسلامي أجمع على وجه الإطلاق.

الحركة الإيمانية الممتدة التي قام بها الأستاذ محمد فتح الله كولن على الأسس الثابتة التي أرساها بديع الزمان سعيد النورسي، تمثل تجربة في التجديد وإعادة البناء والإصلاح العميق الشامل الفاعل والمؤثر، جديدة بالدراسة. ولقد كان المؤتمر الذي عقد في مقر جامعة الدول العربية بالقاهرة والذي شارك فيه مفكرون وباحثون أكاديميون ومثقفون مهتمون بقضايا العالم الإسلامي من شتى أنحاء العالم، مناسبة مواتية لدراسة هذه التجربة الفريدة من نوعها بالمعنى الدقيق للكلمة، وليس على سبيل المجاز.

الأستاذ محمد فتح الله كولن (بفتح اللام، ومعناها بالتركية: الباسم الضحك) مفكر مجدد، ومصلح اجتماعي مجتهد، وداعية حوار مع

الثقافات والأديان، ومثقف عالم واسع الأفق رحب الرؤية ثاقب النظر راجح العقل شديد الوعي بما يحفل به الواقع من تحدّيات وصعوبات ومعوقات يتطلب تجاوزها قدرًا كبيرًا من الحكمة البالغة ومن الأناة والحلم، ومن الترفّع عن صغائر الأمور والتركيز على عظامها التي تنفع الناس وتمكث في الأرض. لفتح الله كولين مؤلفات كثيرة ودواوين شعر وترجمة لما تيسر من القرآن الكريم من خلال رؤية إيمانية تجديدية، وله كتاب قيم في السيرة النبوية يقع في مجلد ضخم قرأته في السنة الماضية وأفدت منه، كما قرأت بعضًا من مؤلفاته، وخرجت منها ب زاد من المعرفة وافر أغنى حصيلتي وأنعش روحي وقربني من هذه الشخصية التي لا أبالغ إطلاقًا إذا قلت إنها من الشخصيات الفريدة في هذا العصر، من حيث المنهج الحكيم الذي يعتمده، ومن حيث التأثير القوي الذي أحدثته حركته في المجتمع الذي تنتمي إليه، وفي المحيط الإسلامي المجاور، وفي دوائر كثيرة داخل المجتمعات الإسلامية في العالم، وذلك نظرًا إلى أن آثار الحركة الإيمانية التي تدور في فلك الأستاذ محمد فتح الله كولين، تمتدّ إلى أنحاء عديدة من العالم.

يعيش فتح الله كولين اليوم في ولاية بانسيلفانيا بالولايات المتحدة الأمريكية، حيث يتلقى العلاج. وقد اضطر إلى الهجرة إلى أمريكا مرتين بسبب الضغوطات التي مورست ضده والمحاكمات التي تعرّض لها والمضايقات التي تحاصره والتهديدات بالاغتيال التي واجهته. وعلى الرغم من أن المحكمة برأت ساحته فحكمت عليه بالبراءة من التهم التي وُجّهت إليه، إلا أنه فضّل البقاء في أمريكا لمتابعة العلاج، حيث يقوم بنشاط ثقافي فكري وأكاديمي من خلال العديد من المؤسسات

العلمية والجامعات الأمريكية. واستطاع الرجل أن يؤسس بواسطة طلابه الأكاديميين، كرسياً علمياً للدراسات الإسلامية باسم بديع الزمان النورسي، في جامعة "جون كارول" بمدينة كليفلاند الأمريكية، يُشرف عليه باحثون أتراك، ومن خلاله يتم الإشراف على بحوث الماجستير والدكتوراه وعقد ندوات ومؤتمرات علمية. "ولم يزل فتح الله في منفاه الصغير الذي لا يغادره إلا إلى المستشفى لفحص صمامة القلب يلتقي بالوفود من الأكاديميين الكبار، وبعض رجال الدين المسيحيين الذين أعجبوا بشخصيته ذات العمق الفكري والسمو الروحي العظمى"^(٤٤)، كما يقول فريد الأنصاري كاتب سيرته.

ومن موقعه في الولايات المتحدة الأمريكية بحكم حالته الصحية الدقيقة، يقود محمد فتح الله كولن الحركة الإيمانية أو "الخدمة القرآنية" حسب الاسم الذي اختاره لتجربته المتميزة التي غيرت الصورة العامة في تركيا، وأصبح لها وزنها في المعادلات والتوازنات المحلية وتأثيراتها البالغة في استرجاع الشعب التركي لوعيه الحضاري وعودته إلى منابعه الثرة وجذوره الراسخة.

في مؤتمر القاهرة حول مستقبل الإصلاح في العالم الإسلامي، أبرزت البحوث والدراسات التي أُلقيت، فلسفة حركة الأستاذ محمد فتح الله كولن ومفهوم الخدمة (خدمة الإيمان وخدمة القرآن) وهي ذات أضلاع ثلاثة: "العزيمة، الإخلاص، الهمة" في المجال العام، وهي "الخدمة التي تستند إلى موارد بشرية بالأساس مدعومة بموارد الوقف والإنفاق التطوعي

من أجل الصالح العام". وأوضحت البحوث التي قُدمت إلى المؤتمر، طبيعة نمط حركة فتح الله كولن للتغيير الاجتماعي باعتبارها "ليست حركة تركية، ولكنها حركة عبر قومية وعالمية للتربية ولعبور الجسور بين الأقوام والأديان تحقيقاً لنهوض الأمة الإسلامية وخير الإنسانية جمعاء". وقد قُدمت في مؤتمر القاهرة بحوث عرفت ببرنامج الحركة من حيث "أهمية التعليم ومقاومة الجهل والفرقة والفقر، ومن حيث آليات ووسائل الحركة ومجالات عملها داخل تركيا وعبر العالم من خلال المدارس والجامعات والإعلام ورجال الأعمال، و"وقف (جمع أوقاف) الصحفيين والكتاب"، ومؤسسة "أبانت" للحوار، و"وقف (جمع أوقاف) البحوث الأكاديمية".

وقد تناولت البحوث التي قدمت في مؤتمر القاهرة أيضاً، والتي قرأت ملخصاً عنها في التقرير الختامي، مصادر التكوين الفكري لمحمد فتح الله كولن وخبراته العملية وطبيعة النموذج الذي يقدمه باعتباره شيخاً (بدأ حياته العملية واعظاً وخطيباً تابعاً لإدارة الشؤون الدينية في عدد من المدن التركية)، ومفكراً، ورائد حركة مدنية، ومصلحاً اجتماعياً، وناشط سلام، وأديباً وشاعراً. ويّنت دراستان قدمهما كل من الدكتور أركون جابان والدكتور إبراهيم البيومي غانم، ثنائية مصادر تكوين محمد فتح الله كولن: الأصول الإسلامية والتراث الإسلامي^(٤٥)، إلى جانب الاطلاع الواسع على الفلسفات والعلوم المعاصرة، ناهيك عن التكامل بين الفكر والحركة. وفي بحث للدكتورة أمانى صالح شاركت به في المؤتمر، أبرزت "أهمية القيادة الإصلاحية، وأهمية ما يميز الرجل عن غيره من

(٤٥) مستقبل الإصلاح في العالم الإسلامي، ص: ١٥٠.

مصلحي النصف الأخير من القرن العشرين، وهو نقل فكره إلى الناس وتحويله إلى حركة دافعة في مجالات الإصلاح، مؤكدةً على أهمية البعد الإيماني في الحركة ليس بوصفه مجرد دافع، ولكن باعتبار الغاية منه التي تكتمل بالخدمة^(٤٦).

ومفهوم "الخدمة" عند الأستاذ محمد فتح الله كولن، ولدى العاملين في إطار حركته، من المؤمنين بفكره، ومن الأنصار الداعمين لمشروعه الإصلاحى، يختلف عن المفهوم السائد المتعارف عليه في العالم العربى. وأعتقد أن خصوصية حركة فتح الله كولن تأتي من هذا الجانب، أي انفرادها بمفاهيم ومضامين ومدلولات تعطيها روحاً خاصة بها. ولذلك فإن فهم المشروع الحضارى المتميز الذي تعمل هذه الحركة لبلورته وتنفيذه في الواقع داخل تركيا وخارجها، أقول فهم هذا المشروع غير متيسر لمن لم يطلع على فكر هذا الرجل الفذ، وعلى فكر أستاذه بديع الزمان سعيد النورسي.

لقد مرّ الأستاذ فتح الله كولن بمراحل شاقة في نشأته الأولى في إحدى المدن الصغيرة في الأناضول شمال شرقي تركيا، حيث تلقى علومه الدينية على شيوخ أترك كانوا حريصين على نقل الثقافة العربية الإسلامية إلى الجيل الجديد في تلك الفترة العصيبة التي أعقبت الحرب العالمية الثانية، وتعلّم القرآن الكريم على يد والدته في البيت. وقد نشأ في أسرة محافظة تنسب إلى السلالة النبوية، انتقل أجدادها في القرون الأولى من التاريخ الإسلامي إلى الأناضول. وعانى معاناة شديدة في اكتساب المعرفة

^(٤٦) مستقبل الإصلاح في العالم الإسلامي، ص: ٣٧٠.

الدينية واللغوية التي أهلتها لمزاولة مهنة الوعظ والخطابة. ولكنه أقبل على القراءة الحرة، فانفتحت له أبواب المعرفة، حيث اطلع على الفكر الإنساني في مصادره الفلسفية والأدبية والعلمية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية، حتى صار من المثقفين الموسوعيين الذين يقدرون رسالة الثقافة التنويرية، وارتبطت أسبابه بالأستاذ سعيد النورسي من خلال قراءته المتعمقة لرسائل النور التي كانت مشكاة أضاءت الطريق أمامه، بل كانت رسائل النور لبديع الزمان النورسي - بالنسبة لفتح الله كولن - بمثابة خريطة طريق اهتدى بها ولا يزال في دروب العمل الحضاري التنويري البنائي التجديدي الكبير الذي ينهض بمسؤولياته.

تحت يدي أثناء كتابة هذا المقال، الجزء الأول من كتاب "التلال الزمردية: نحو حياة القلب والروح" للأستاذ محمد فتح الله كولن، ترجمه من التركية إلى العربية، الأستاذ إحسان قاسم الصالحي، وكتب مقدمته الأستاذ أديب إبراهيم الدباغ. وأشهد أن هذا الكتاب - الذي لا أعرف حتى الآن هل صدر الجزء الثاني منه - من الكتب النادرة التي تكشف عن طبيعة شخصية هذا الرجل الذي يمثل ظاهرة فكرية وحركية. ولذلك استحق أن يحتل مكانه ضمن قائمة الشخصيات المائة في القمة الأكثر تأثيراً في محيطها على الصعيد العالمي.





المفكر التركي المرشح لجائزة نوبل للسلام:

ماذا لو عمل العرب بأفكار محمد فتح الله كولن؟^(٤٧)

كلّما تفاقمّت الأوضاع في العالم العربي -على أكثر من صعيد- وأطلت التأمّل في تداعياتها، عدتُ بأفكاري إلى الأستاذ محمد فتح الله كولن، المفكر التركي الكبير الذي لا أجد له نظيرًا بين المفكرين العرب في هذا العصر، أستحضر أفكاره البّناء التي ينفرد بها، وأتأمّل في آرائه السديدة حول المشاكل التي تعاني منها المجتمعات العربية الإسلامية، وأراجع بعضًا من كتاباته المتميزة، وأنظر في تحليلاته العميقة للقضايا الإنسانية المعقدة التي لم تفلح الأمم المتحدة في إيجاد تسويات لها، على الرغم من مضي أكثر من ستة عقود على تأسيس المنظمة الدولية، فأجدني أمام شخصية فذة بالغة التميز تستحق أن أقدمها إلى القارئ للمرة الثانية، ولكن من جوانب جديدة.

الأستاذ محمد فتح الله كولن قطب من أقطاب الفكر في هذا العصر، على المستوى الإنساني العام، وليس فحسب على المستوى الوطني التركي، أو على المستوى الإقليمي الإسلامي. هو شخصية فريدة من نوعها، ذات تأثير قويّ ونافذ وبالغ الفعالية في محيطه التركي، بل في

^(٤٧) مجلة "العالم" المغربية، ٣ مايو ٢٠١١.

العالم التركي الذي يشمل الدول التي تتحدث اللغة التركية في آسيا الوسطى، وأكاد أقول في مناطق شتى من هذا العالم. وربما كان اسم المفكر محمد فتح الله كولن غير معروف، على نطاق واسع في العالم العربي، كما هي أسماء كثيرة من أعلام الفكر والعلم والأدب والثقافة من العالم الإسلامي غير معروفة في البلدان العربية. لقد عشنا فترة طويلة لا نعرف من رموز الأدب والفكر والثقافة في تركيا سوى أسماء الشعراء والكتاب والأدباء اليساريين، أو بعبارة أدق أسماء الشيوعيين الماركسيين الذين استطاعوا -بقوة الدعاية التي كان ينفخ فيها المعسكر الشيوعي بزعامة الاتحاد السوفييتي المنهار- أن يفرضوا أنفسهم على المحافل الأدبية والفكرية والثقافية العربية، مثل الشاعر الشيوعي ناظم حكمت، الذي ظل اسمه يتردد في الصحافة العربية لسنوات طويلة باعتباره رمزاً للنضال الفكري والمقاومة السياسية من خلال الشعر في تركيا، واتضح بعد ذلك، أنه كان من أنصار إسرائيل والصهيونية العالمية، ومن المدافعين عن وجودها في قلب العالم العربي، فضلاً عن أنه كان من أشد خصوم الهوية الثقافية الحضارية للشعب التركي الشقيق.

لقد وُفق الأستاذ محمد فتح الله كولن توفيقاً بعيداً المدى غير مسبوق، في إيجاد حلول للمعادلة الصعبة الدقيقة التي لم يَهْتدِ المفكرون العرب إلى حلّها حتى الآن، وهي التركيز على نشر التعليم الراقى على أوسع نطاق، وبأعلى مستويات التطوير والتحديث ومسايرة متغيرات العصر، من خلال رؤية شمولية تتحرر من قيود الواقع وتطلع إلى المستقبل، من دون التفريط في الخصوصيات الروحية والثقافية والحضارية، بحيث استطاع أن يُنشئ شبكة واسعة من المدارس والجامعات الراقية، ليس فقط

في تركيا، وإنما في الدول الناطقة باللغة التركية في آسيا الوسطى التي استقلت، أو بالأحرى استرجعت استقلالها بعد سقوط الاتحاد السوفيتي، وفي عدد كبير من دول العالم، في آسيا وأوروبا والأمريكتين وأفريقيا وفي العالم العربي. وتتميز هذه الشبكة من المدارس ذات المستوى الجيد المتفوق والجامعات الراقية التي تحتضن النخبة من الطلاب، بأنها تجمع في منظومة تعليمية واحدة، بين تدريس العلوم التطبيقية للتلاميذ والطلاب باللغة الإنجليزية، وبين التوجيه الأخلاقي والتشبع بقيم الثقافة الدينية في غير ما تزمت أو تشدد أو انغلاق.

وتتكامل هذه الجهود المتفوقة الموفقة المتميزة التي تبذل على صعيد التربية والتعليم وفقاً لأحدث الطرق البيداغوجية والمناهج الأكاديمية المعتمدة في أرقى الجامعات العالمية، مع نشاط إعلامي ثقافي مكثف شديد التميز، يتمثل في تأسيس القنوات التلفزيونية والمحطات الإذاعية وإصدار العشرات من المجلات الراقية بأكثر من ثلاثين لغة، تطبع وتوزع في مناطق شتى من العالم، وتعالج قضايا الفكر والعلم والثقافة والمعرفة بصورة عامة، بأساليب جد مبتكرة، تنفتح على العصر ولا تفرط في الثوابت، ودونما صخب إعلامي أو ضجيج ثقافة أو بهرجة وتشدق بالشعارات التي أفسدت الحياة الفكرية والثقافية في العالم العربي تحديداً.. أتابع منها مجلة "حراء" التي تصدر باللغة العربية كل شهرين وتطبع في القاهرة وفي تركيا وفي السعودية وفي المغرب، بينما توجد هيئة التحرير في إسطنبول. كما يتوازي هذا النشاط الإعلامي الواسع، مع إصدار الكتب بأكثر من عشرين لغة، منها مؤلفات الأستاذ محمد فتح

الله كولن التي آخر ما صدر منها كتاب بعنوان: "ونحن نبني حضارتنا"^(٤٨)، ولكنني أقرأ بانتظام المقالات الافتتاحية التي تنشرها له مجلة "حراء" في كل عدد، فأشعر بقشعريرة وجدانية تهزني، وبنشوة فكرية تثيرني، وبدفقة فؤارة من الفكر العميق والتحليل الدقيق تنعشني.

لقد استطاع المفكر المصلح الأستاذ محمد فتح الله كولن أن يقف في وجه تيارات التغريب المدمرة العاصفة التي كادت أن تقتلع الهوية الوطنية للشعب التركي من الجذور، وتقطع صلته بثقافته وتراثه وتاريخه أسلافه. ولكن وقوفه الشجاع في وجه هذه التيارات العارمة الكاسحة، تميز -ولا يزال يتميز- بمواقف لم يتخذها غيره، تنبني على فهم عميق لطبيعة الأوضاع في بلاده، وعلى قدر كبير من الوعي الرشيد بالمتغيرات الإقليمية والدولية، وتتعامل مع الواقع بحكمة بالغة هي من سجاياء التي عرف بها. فقد تجاوز الدخول في "الصراع" مع الأمر الواقع المفروض بقوة الدستور والقانون، إلى "التكيف مع الواقع" واستغلال الجوانب الإيجابية فيه، والتفاعل معه، لا بمنطق "المعركة"، ولكن بمنطق "الحكمة العملية". وهي الحكمة التي غابت -ولا تزال تغيب- عن نفر من المفكرين العرب الذين يعتمدون "الصدام"، و"الصراع"، و"النضال"، والدخول في "معارك" بهدف التغيير القسري على النحو الذي يصل أحياناً إلى ضرب من "الانقلاب" الذي يفسد ولا يصلح، ويهدم ولا يبني، ويزيد من قتامة الأحوال ولا يبديد ظلامها. وبهذا المنهج الواقعي الحكيم، أفلح الأستاذ محمد فتح الله كولن فيما فشل فيه سواه، واستطاع بتبصره،

(٤٨) ونحن نبني حضارتنا، فتح الله كولن، دار النيل، القاهرة ٢٠١٠.

وبصدقه مع الله، ثم مع ذاته ومع المجتمع الذي ينتمي إليه، أن يهتدي إلى حلول عملية واقعية لتلك المعادلة الصعبة المعقدة التي تتمثل في "تطويع" الواقع، و"ترويض" الخصوم -وهم كثر- وتذليل الصعاب التي تعترض طريق العاملين بإخلاص نادر، من أجل تقدم المجتمع وتطويره والنهوض به، والربط بين الارتقاء المادي بالإنسان، وبين الارتقاء الروحي والثقافي بالإنسان، فلا يفصل فاصل بين الحالتين اللتين يجب أن تتكاملا وتتوازنا في تناغم وانسجام كاملين، إذا وقع الإخلال بهما، اختل الميزان وانفرد العقد وانحرف المسار، وربما انتهى الأمر إلى نتائج عكسية.

لقد عرفت تركيا خلال العقدين السادس والسابع من القرن الماضي، تصاعداً في نشاط التيارات اليسارية التي كانت تعارض النظام، وتشن حرباً ثقافية حامية الوطيس ضد كل مقومات الشعب التركي وفي المقدمة منها "الدين". وعلى الرغم من أن تركيا عرفت انفراجاً في الأزمة الحادة التي كانت تطبع الحياة العامة، وذلك ابتداء من مطلع الخمسينيات، حين تراجع نفوذ حزب الشعب الذي كان من مهامه الرئيسة المعادة الصريحة للدين واضطهاد المتدينين وخاصة العلماء وخطباء المساجد الذين يسمون برجال الدين -وهي تسمية لا معنى لها في المجتمعات الإسلامية-، على الرغم من ذلك، فإن الأحزاب الماركسية التي كانت تعمل تحت الأرض، وتحارب النظام والدين والثقافة التركية بصورة عامة، كانت قد أخذت تتوسع في نشاطاتها السرية، وتمارس اضطهاداً وإرهاباً ضد الدين ومن يعمل لنشره. وكانت الصحافة التركية في الستينيات والسبعينيات واقعة تحت تأثير اليسار بكل أطيافه، وكان ذلك أحد التناقضات الحادة التي عرفتها تركيا العلمانية الليبرالية العضو في حلف شمال الأطلسي (ناتو)

والتي كانت تحتضن القواعد الأمريكية. وكان هذا الوضع المتناقض والغريب، حافزاً للجيش للقيام بانقلاب عسكري في مطلع الثمانينيات أطاح بالحكومة، وشدد الخناق على أي نشاط ثقافي مستقل، خاصة ما يهدف منه إلى إنقاذ الهوية الثقافية والحضارية للشعب التركي.

في تلك المرحلة الدقيقة من تاريخ تركيا المعاصرة، كان محمد فتح الله كولن يعمل إماماً وخطيباً في أحد المساجد تابعاً لإدارة الشؤون الدينية. ولكنه كان إماماً من نوع يختلف تماماً عن الأئمة والخطباء الآخرين الذين كانوا -مثله- موظفين في الدولة. كان مثقفاً منفتحاً على الثقافات الإنسانية، يقرأ بنهم في مختلف فروع العلم والمعرفة، من الفلسفة والأدب، إلى العلوم السياسية والاجتماعية والعلوم التطبيقية، إلى العلوم الإنسانية بصورة عامة. وكان منفتحاً على محيطه القريب، يرتاد المقاهي الشعبية لإلقاء الدروس فيها بصورة عفوية. وكان في البداية يلقي صدىً وعزوفاً عن الاستماع إليه من رواد المقاهي، ولكنه استطاع بصبره ومرونته ولين عريكته وبما حباه الله به من لطافة الحس ورقة في الطبع، أن يجذب الجمهور إليه، وأن يتوسع في نشاطه بخطوات متزنة، متنقلاً من محيط إلى آخر، إلى أن تمكن من تكوين رأي عام محلي ويكتسب محبين يتجاوبون مع أفكاره ويتعاطفون معه، مما اضطرت معه الإدارة المسؤولة عن الشؤون الدينية، إلى أن تنقله إلى مدينة أخرى، ليعاود فيها القيام بالدور الذي كان يقوم به في موقعه السابق.

وكانت هذه الجهود تتوازى مع نشاط تعليمي تربوي كان يقوم به، يتمثل في إنشاء المدارس بالتبرعات التي كان يقدمها مجموعة من التجّار الذين آمنوا بأفكاره ووثقوا فيه وكانوا دعمًا له في عمله ولا يزالون.

وهكذا استطاع أن يتحرك في ثلاثة مجالات حيوية؛

- نشر القيم الإسلامية ومحاربة الرذائل بالحكمة وبالتي هي أحسن من خلال المسجد والمقهى والمنتديات العامة،
- تأسيس النواة الأولى لسلسلة من المدارس المتميزة التي ما لبثت أن انتشرت في مختلف أنحاء البلاد،
- إصدار المجلات والكتب وتعزيز الاختلاط بالمتقنين والصحافيين والتحاور معهم والتأثير فيهم بالحسنى.

وبذلك توافرت له الأسباب لاستقطاب فئات عريضة من الشعب، خصوصاً من الشباب، سواء منهم خريجو المدارس التي أنشأها في عديد من المدن والبلدات، أو المثقفون والصحافيون الذين أنقذ بعضهم من جحيم الإلحاد والانحراف، فأصبحوا القاعدة العريضة للبيئة الاجتماعية الجديدة التي أسسها، والتي احتضنت مشروعه الحضاري العديم المثال، وهو ما يصطلح عليه بـ"حركة الخدمة".

وكان ذلك مجرد اصطلاح ليس إلّا، لأن الرجل ومَن معه -وهم قطاع واسع عريض من الشعب التركي من كلّ الفئات- لا يطلقون على أنفسهم هذه الأسماء التي تروّج عندنا في العالم العربي، من مثل "الحركة الإسلامية"، أو "التيار الإسلامي"، أو "الجماعة الإسلامية"، أو "الحزب الإسلامي"، أو "الكتلة الإسلامية"، إلى غيرها من الأسماء التي كثيرٌ منها مستمد من الأسماء التي تتبناها الأحزاب الشيوعية، سواء أكان من يطلقونها على أنفسهم يعون ذلك ويشعرون، أم لا يعون ولا يشعرون.

ومن هنا تأتي الأهمية البالغة للعمل الكبير الذي نهض به محمد فتح الله كولن -ولا يزال ينهض به- حتى وإن كان قد اختار للدواعي الصحيّة،

الإقامة في الولايات المتحدة الأمريكية، فهو من موقعه ذلك، المريبي الحضيف الحكيم لهذه الحركة الفوّارة الدائبة التي غيّرت المجتمع التركي وأحدثت فيه آثارًا إيجابية بالغة العمق، والتي تخدم أهداف التنمية الشاملة المستديمة، وتحمي النسيج التركي الوطني من مخاطر التمزق، وتكسب الدولة التركية قوة ومتانة معنويتين، وتوفر لها الأسباب الموضوعية للامتداد الثقافي والحضاري -الذي يعدّ الامتداد الديبلوماسي جزءًا منه- على الصعيدين الإقليمي والدولي.

ولم يكن الأستاذ محمد فتح الله كولن ممن يعملون لفائدة نشر الأفكار التي يؤمنون بها وترسيخ قواعد المشروع الحضاري الذي يعملون له، وإنما كان -ولا يزال- رائدًا للحوار بين جميع الأطياف الفكرية والثقافية وأتباع العقائد الدينية في تركيا، استطاع أن يؤسس منتدى متعدد الأطراف للحوار وينشئ جوًا مناسبًا مشبعًا بالثقة والاحترام المتبادل لهذا الحوار الديني والثقافي والفكري في إطار من الديمقراطية والشفافية والالتقاء حول المصلحة الوطنية العليا. وقد امتدّ هذا الحوار إلى الكنيسة الكاثوليكية، مما فتح الباب أمام محمد فتح الله كولن للقاء مع بابا الفاتيكان السابق. فهو إذن، رجل الحوار بين أتباع الأديان والثقافات والحضارات، داخل تركيا وخارجها، ورائد في هذا المجال. ولذلك استحق أن يرشّح لنيل جائزة نوبل للسلام، حسب ما ردّدته بعض المنابر الإعلامية الغربية. تُرى ماذا سيحدث لو عمل العرب، في هذه المرحلة، بأفكار محمد فتح الله كولن؟!





فتح الله كولن في جامعة محمد الخامس

استضافت كلية الآداب والعلوم الإنسانية بجامعة محمد الخامس في حي أكدال، خلال الأسبوع الماضي (١٩ يناير ٢٠١٢)، ندوة ثقافية حول فكر محمد فتح الله كولن المفكر والفيلسوف التركي، الذي يقيم في الولايات المتحدة الأمريكية، ويبحث من هناك نهضة تعليمية ثقافية اجتماعية كبرى تعمّ بلده تركيا، وتمتد آثارها إلى عديد من دول العالم، من خلال شبكة واسعة من المدارس الراقية المتميزة التي تغطّي مناطق شتّى من العالم، في أوروبا وآسيا وإفريقيا والولايات المتحدة وأستراليا، في تجربة فريدة من نوعها بكل المقاييس ومن جميع جوانبها.

وقد احتفت النخبة المغربية من أساتذة الجامعات والمفكرين والمثقفين والعلماء والأكاديميين، بهذه الندوة الثقافية التي خصصت لدراسة آخر كتاب صدر للأستاذ فتح الله كولن وتُرجم إلى اللغة العربية، ونشر في القاهرة بعنوان: "ونحن نبني حضارتنا"^(٤٩)، يعكس أفكار المؤلف البناء ذات الوزن الثقيل ورؤاه التجديدية المبدعة، ويعبر عن رؤية في الإصلاح وإعادة صياغة العقل، وفي تجديد البناء على أسس قوية، من خلال مشروع للنهوض الحضاري، ليس له مثيل ضمن المشاريع الإصلاحية

^(٤٩) ونحن نبني حضارتنا، فتح الله كولن، دار النيل، القاهرة ٢٠١١.

الإحيائية التجديدية التي عرفها العالم الإسلامي، منذ القرن التاسع عشر الميلادي وإلى مرحلتنا الحالية.

وقد قامت على هذه الندوة الفكرية المتميزة، مجلة "حراء" التي تصدر باللغة العربية من إسطنبول، وتُطبع في أكثر من عاصمة عربية، ومنها الرباط، وتوزع على نطاق واسع. وهي مجلة راقية يساهم في تحريرها كتاب ومفكرون وشعراء من الدول العربية، ومنهم مجموعة من الأسماء المغربية اللامعة.

وهذا الربط بين الأستاذ فتح الله كولن ومجلة "حراء"، له أكثر من دلالة ومعنى ورمز؛ فهذه المجلة هي واحدة من عشرات المجلات التي تصدر في تركيا بلغات عديدة، وتوزع في المناطق التي تنتشر فيها هذه اللغات، وجميعها منابر ثقافية فكرية راقية تعبر -بأساليب حكيمة رصينة- عن فكر محمد فتح الله كولن المبدع والمتميز بصورة واضحة، من بين المدارس الفكرية في العالم الإسلامي وليس فقط في العالم العربي، من مدرسة جمال الدين الأفغاني، إلى مدرسة محمد عبده، إلى مدرسة محمد رشيد رضا، فمدرسة حسن البنا، ومدرسة محمد البشير الإبراهيمي وعبد الحميد ابن باديس، إلى مدرسة سيد قطب، ومدرسة مصطفى السباعي، إلى غيرها من المدارس الفكرية الإسلامية. ولذلك فإن هذه المدرسة جديرة بأن تدرس على أكثر من مستوى، وتعرض الأفكار التي تقوم عليها، للنقاش الواسع والتحليل العميق، ويعاد فيها النظر الثاقب، للوصول إلى المنابع التي تستقي منها، وللوقوف على المصادر التي تنبثق عنها، التماساً للعبير والدروس منها.

لقد انطلق محمد فتح الله كولن في تنفيذ مشروعه الحضاري المتوازن

والمتكامل، في الستينيات من القرن الماضي، من الاهتمام بالتربية والتعليم من خلال إنشاء مدارس أهلية بإمكانات بسيطة، سرعان ما انتشرت بين أكثر من مدينة وبلدة وقرية على امتداد الخريطة التركية، يساعده في ذلك الأفراد الذين وثقوا فيه، وآمنوا بفكرته التي كان يدعو إليها في دروسه الدينية وفي خطب الجمعة وفي المواقع التي يتجمع فيه الجمهور، خصوصاً في المقاهي الشعبية والأندية العامة، اقتناعاً منه أن التربية البانية والتعليم النافع المنتج، هما السبيل إلى التنمية والتقدم والتغيير الإيجابي، بطرق مستقيمة، وبمنهج سلمي مستنير، وبأساليب واقعية حكيمة.

كانت تركيا في تلك المرحلة، واقعة تحت هيمنة نظام عسكري مستبد يمارس سياسة قمعية على شتى المستويات، أفرزت أوضاعاً اقتصادية متردية فشا فيها الفقر خصوصاً في المناطق القروية وفي المدن الصغيرة، وسادت موجات عالية من محاربة التدين، ونشر الإلحاد والتربص بالمدارس الدينية التقليدية التي كانت قد عادت إلى فتح أبوابها في مطلع الخمسينيات، بعد أن ظلت ممنوعة طوال عهد مصطفى كمال أتاتورك، وفيما تلا ذلك من سنوات القمع في ظل حزب الشعب، إلى أن فشل هذا الحزب في الانتخابات البرلمانية في عام ١٩٥٠م، وانهزم أمام الحزب الديمقراطي بزعامة عدنان مندريس.

بدأ محمد فتح الله كولن حياته العملية واعظاً وإماماً في المساجد، تابعاً للإدارة الدينية الملحقة برئاسة الحكومة. ولكنه لم يكن واعظاً تقليدياً، ولا إماماً من جملة أئمة المساجد في تركيا وفي البلدان الإسلامية الأخرى. لقد كان قدوة وأسوة وشعلة من الحيوية والنشاط، أقبل على القراءة في مختلف فروع الفكر والثقافة والأدب والعلوم والفنون، ونهل من منابع

ثقافية وفكرية متنوعة، وجمع بإرادته القوية وعزيمته الصلبة، بين الثقافة الإسلامية في مصادرها التقليدية، وبين الثقافة الغربية في فروعها المتنوعة، فكان إذا تحدث إلى الناس، أفاد وأقنع وأمتع، وأقام بينه وبينهم جسورًا من المحبة والتقارب والتلاقي. وبذلك اجتمعت حوله طوائف شتى من الشعب التركي، تؤيده في مشروعه، وتؤازره في تنفيذه، وتمنحه ثققتها وترى فيه مثلاً للصدق والجديّة والاستقامة، وتقف إلى جواره في تأسيس المدارس وتجهيزها، وفي تربية الناشئة بطرق بيداغوجية حديثة لم تكن مألوفة عهدئذ.

بدأ بمدرسة واحدة متواضعة، ثم انتقلت هذه المدرسة إلى موقع أكثر ملاءمة، ومن تلك المدرسة انطلق إلى إنشاء العشرات من المدارس التي أصبحت اليوم بالآلاف، إلى جانب الجامعات التي أسسها. وخرج بهذا المشروع التربوي الحضاري، بعد سنوات من التجربة المحليّة التي أعطت ثمارها، إلى آفاق أوسع؛ فعمل على إنشاء مدارس راقية متميزة في عديد من البلدان الآسيوية والإفريقية والأوروبية حيث توجد المجتمعات الإسلامية، ومن هذه السلسلة خمس أو ست مدارس في مدن مغربية. وتعتمد هذه المدارس أرقى المناهج العالمية في تدريس العلوم، وتعليم اللغة الإنجليزية، وتدريس المعلومات، ويتخرج فيها كل سنة الآلاف من الشباب ذكورًا وإناثًا.

في ندوة جامعة محمد الخامس، تحدث مصطفى أوزجان الذي تربى في رحاب الأستاذ فتح الله كولن منذ أن كان فتى يافعًا، وعمل هو أيضًا واعظًا دينيًا، إلى أن تفرّغ للخدمة في مشاريع ثقافية وأكاديمية واجتماعية متعددة تعمل في إطار هذا المشروع الحضاري الكبير، تحدث فقال: "إن

المفكر كولن يمتلك مشروعاً ثقافياً يحاول إيجاد الحلول للمعضلات المجتمعية، يركز على نشر التعليم الراقى على أوسع نطاق، وبأعلى مستويات التطوير والتحديث ومسايرة متغيرات العصر، من خلال رؤية شمولية تتحرر من قيود الواقع وتتطلع إلى المستقبل، دون التفریط في الخصوصيات الروحية والثقافية والحضارية".

ولم أجد أبلغ في التعبير ولا أوفى بالقصد من التفسير لأبعاد هذا المشروع الحضاري التركي مما قاله مصطفى أوزجان الذي تعرفت عليه في مناسبات سابقة، فرأيت فيه مثلاً للصدق والجّد والمثابرة على العمل والإخلاص والوفاء للمشروع الحضاري الذي يراعه أستاذه كولن.

محمد فتح الله كولن المعروف في تركيا بـ"هُوجَا أَفَندي" (الأستاذ المعلّم) الذي هو "الشخصية الأكثر تأثيراً في العالم"، وفقاً للإحصاء الذي أجرته جريدة "الأيكونومست الأمريكية"^(٥٠). يقول عنه الدكتور عبد الحليم عويس في أحدث كتاب له صدر باللغة العربية بعنوان "فتح الله كولن: رائد النهضة الراشدة في تركيا المعاصرة"^(٥١): "والعجيب أن ملايين المسلمين في العالم العربي لا يعرفون صاحب هذه الشخصية النادرة الذي يلقّبه أبناء تركيا بلقب "هُوجَا أَفَندي" ومعناه "الأستاذ المعلّم".. فكيف حصل هذا التناقض بين هذه القمة الشامخة في ميدان الدعوة الإسلامية على المستوى العالمي، وجهل الناس به هذا الجهل المشين؟! إننا نعتقد أن الأستاذ فتح الله كولن يتحمّل قدراً من المسؤولية حول هذا

^(٥٠) مجلة (Foreign Policy) الأمريكية، ٢٣ يونيو ٢٠٠٨.

^(٥١) فتح الله كولن.. رائد النهضة الراشدة في تركيا المعاصرة، عبد الحليم عويس، دار النيل،

الأمر، فهو بطبيعته يعمل لله مخلصاً في صمت، لا يسعى إلى الشهرة، ولا يريد أن يتعرف عليه الناس على أنه نجم من النجوم"^(٥٢).

وإذا كان هذا الكلام صادقاً ودقيقاً وموضع تقدير من عارفي قدر المفكر الفيلسوف كولن، فإن صاحبه -يرحمه الله- وقع في المحذور، حين وصف المفكر المجدد المصلح بأنه "إمام النهضة"، ونعته بـ"الشيخ"، بينما هو أبعد الناس عن هذه الألقاب، إذ ليس هو "إماماً" للنهضة، بالمعنى الشائع في العالم العربي، وليس هو "شيخاً" بالمفهوم المتداول، فلا شبه له من بين العاملين في الحقول التي يعمل فيها، في طول العالم العربي الإسلامي وعرضه.

لقد كتبت مراراً ورددت في مجالس كثيرة، أن المفكر التركي محمد فتح الله كولن لا ينبغي النظر إلى أفكاره وأعماله ومشروعاته من خلال المنظور العربي الذي نعرفه. كذلك فإن حركة "جماعة النور" التي ترتبط ببديع الزمان سعيد النورسي، ليست هي مثل الحركات التي نعرفها في العالم العربي. هذا المفكر هو نسيج وحده، بالمعنى الدقيق للكلمة، وليس بالمعنى المجازي. وكذلك هي حركة "جماعة النور" التي خرج منها هذا المفكر، فريدة من نوعها لا نجد نظيراً لها عند العرب كافة. ومن الخطأ البين أن نعتمد المعايير السائدة عندنا في توصيف النورسي وكولن، وفي الحكم على هذه النهضة التعليمية الحضارية الكبرى الممتدة عبر الآفاق والمنطلقة من تركيا، وعلى هذه المشروعات الثقافية والاجتماعية والاقتصادية التي هي معالم مضيئة للنهضة وللتقدم والتنمية في تركيا

^(٥٢) رائد النهضة الراشدة في تركيا المعاصرة، ص: ١٤.

اليوم، والتي هي ثمرات من الشجرة المباركة التي زرعها محمد فتح الله كولن في بلده، في زمن القحط الثقافي والجفاف الفكري والجذب الاقتصادي والإرهاب السياسي الذي كانت تمارسه الدولة ضد مواطنيها في تلك الحقبة التي آلى كولن على نفسه أن يتحداها، وأن يمضي قدماً في تنفيذ مشروعه الحضاري الذي ساهم به في تغيير تركيا من دولة فقيرة مفلسة إلى دولة تحتل اليوم المرتبة العشرين بين الدول المنتجة المصدرة. إن وصف المفكر الفيلسوف كولن بأنه "الشخصية الأكثر تأثيراً في العالم" وصف دقيق للغاية. فقد قام بعمل لم يقم به رجال الدولة في بلاده الذين تعاقبوا على الحكم، وأنجز في الواقع المعيش ما لم ينجزه غيره، لأنه سلك السبل المستقيمة نحو إعادة بناء الإنسان التركي وصياغة النموذج الأرقى للنهضة التركية، من موقعه الذي لم يكن موقعَ زعيم، أو قائد، أو رجل دولة، وبالأحرى "إمام النهضة"، ولكنه موقع مفكر بعيد النظر ومصلح مجدّد صادق ومخلص عميق الفهم للواقع في بلاده وفي بلاد المسلمين عموماً... رأى أن طريق الانبعاث والنهضة والتقدم والتنمية الشاملة المتكاملة، تبدأ من إعادة صياغة الإنسان بالتربية البانية للعقل وللوجدان، والتعليم الذي يفتح الآفاق للولوج إلى عالم المعرفة ولا متلاك ناصية العلوم والتكنولوجيا.

تلك هي بعض من الخصائص التي يميّز بها المفكر الفيلسوف محمد فتح الله كولن ومجالات تفرّده، والذي احتفت به النخب المغربية في رحاب جامعة محمد الخامس.





رؤية أمريكية في محاورات حضارية.. حول فلسفة تغيير الإنسان

تقول المؤلفة الأمريكية الدكتورة جيل كارول: "لقد عشتُ مع فتح الله كولن من خلال كتاباته أثناء إعداد هذا الكتاب، وما زالت أفكاره تلهمني. وقد عرفت بعد لقائه، لماذا ألهم هذا الرجل ما يقرب من ثلاثة أجيال في تركيا، ومنحهم الدافع، رجالاً ونساء، لإنشاء عالم جديد. إنه رجل يتمتع بقدر هائل من الروحانية والإخلاص والتعاطف. وهو شيء واضح للغاية في كتاباته وفي شخصيته"^(٥٣).

بهذه العبارات تختم المؤلفة الأمريكية الأكاديمية الدكتورة جيل كارول، كتابها المثير للفضول العلمي "محاورات حضارية: حوارات نصية بين فتح الله كولن وفلاسفة الفكر الإنساني". أما الفلاسفة الذين تقارن المؤلفة بين نصوصهم ونصوص المفكر الفيلسوف التركي، فهم كونفوشيوس، وأفلاطون، وكانط، وجون ستيورات ميل، وسارتر. وأما الكاتبة فهي أكاديمية من جامعة "رايس" الأمريكية، تعمل خبيرة ومحاضرة متخصصة في مجال الدين والسياسة والمجتمع، وفلسفة الحياة، وعملت مديرة لمركز بحث وتطور التسامح الديني في الجامعة نفسها حتى يونيو

^(٥٣) محاورات حضارية، حوارات نصية بين فتح الله كولن وفلاسفة الفكر الإنساني، جيل كارول، دار النيل، القاهرة ٢٠١١، ص: ١٦٥.

٢٠٠٩م، ولا تزال تعمل عضوًا في هيئة التدريس في كلية الدراسات الدينية في هذه الجامعة، وهي تلقي محاضرات في شتى المراكز العلمية والخدمية، كمعهد "كادم"، ومركز "جانك" للشباب في هيوستن، وسجن ولاية تكساس، بالإضافة إلى عملها كاتبة في مدونة تدعى "تولينك" تولرانس" تابعة لجريدة "هيوستن كرونيكل". وكتابها هذا الذي قدّم له البروفيسور أكبر أحمد (أستاذ كرسي ابن خلدون للدراسات الإسلامية في الجامعة الأمريكية بواشنطن) حاز أصله الإنجليزي لقب الكتب الأكثر مبيعًا على موقع الأمازون في فئة الكتب الإسلامية إبان نشره في عام ٢٠٠٧م، علمًا بأنه ترجم إلى اثنتي عشرة لغة عالمية من بينها اللغة العربية. ينقسم الكتاب الذي يحمل في أصله الإنجليزي عنوان (A Dialogue of Civilizations)، إلى خمسة فصول، تتناول الموضوعات التالية:

- القيمة الإنسانية المتأصلة والكرامة الأخلاقية بين كولن وكانط،
- الحرية لدى كولن وميل،
- الإنسان المثالي لدى كولن وكونفوشيوس وأفلاطون،
- التعليم بين كولن وكونفوشيوس وأفلاطون،
- المسؤولية عند كولن وسارتر.

وعلى الرغم من انتماء كونفوشيوس وأفلاطون وكولن إلى خلفيات ورؤى حياتية مختلفة تمامًا، فإنهم يشتركون جميعًا في رؤية أساس واحدة حول بنية الواقع. فالثلاثة -كما تقول المؤلفة- يتحدثون عن رؤاهم للمجتمع الإنساني من منطلق مثالية غيبية تمثل الأساس والمصدر والحقيقة والأصل لكل الواقع الدنيوي. وبعد أن تحلل الرؤية الفلسفية عند كونفوشيوس وأفلاطون، تخلص المؤلفة إلى القول "إن كولن يؤكد

على تصوره للحياة الإنسانية في إطار الإسلام الذي يطرح رؤية حياتية تجمع بين الحياة الدنيا والحياة الآخرة، ولا تكتسب الحياة الدنيا كمالها ومعناها وأصالتها، إلا عندما نعيش فيها ونحن نؤمن بوجود الله ﷻ باعتباره المصدر والأساس للحقيقة. وجميع الكائنات هي في جوهرها مسلمة -بمعنى أنها تسلم وجهها لله- لأنه لا وجود مطلقاً لأي شيء بعيداً عن إرادة الله وقدرته. وعندما تسير الأشياء في حياتها وأهدافها بالطريقة التي فطرها الله عليها، فإنها تفعل ذلك في خضوع واستسلام لله باعتبارها مسلمة^(٥٤). وتقول المؤلفة وهي تحلل في استيعاب عميق رؤية كولن المستمدة من الإسلام، "إن الحياة في أكمل صورها لا تكون إلا عندما نعيشها ونحن نؤمن -بعقولنا وليس فقط بالفطرة- بتلك الجنة الأبدية للحياة في خضوع واستسلام لله ﷻ"^(٥٥).

وتسجل المؤلفة ملاحظة مهمة في إطار المقارنة بين المفكرين الثلاثة، فتقول "إن أفكار كولن عن العالم الإسلامي، وخصوصاً تاريخ الأناضول ومصيره، تتوازي مع خواطر كونفوشيوس عن الصين القديمة؛ فكلما الرجلين يشير إلى فترة ماضية من العظمة الضائعة التي يجب استعادتها الآن. يشير كونفوشيوس بشكل متكرر، إلى الحكام والأباطرة القدماء وغيرهم من الأجيال السابقة كأمثلة للنبل وللحكمة اللذين كان ينبغي -وقتها- استلزامهما لو كانت الصين ترغب في استعادة مجدها السابق وتجنب التشرذم والطغيان. وكولن يتأمل أيضاً في الماضي المجيد للإمبراطورية العثمانية يوم كانت الحضارة التركية في أوجها، وكان

(٥٤) محاورات حضارية، ص: ٧١.

(٥٥) محاورات حضارية، ص: ٧٢.

الإسلام كدين وثقافة يسود العالم سيادة مطلقة. وهو يرى أن عظمة العثمانيين الحقيقية كانت تكمن في التزامهم بالمثل العليا التي تهدف إلى خير المجتمع في حاضره ومستقبله، وأيضاً في جوهرهم الإسلامي الذي جعلهم يقتدون بالخلفاء الأربعة الراشدين، ويرى كولن أيضاً، أن شخصيات بارزة مثل الفراعنة وقيصر ونابليون، وإن كانت تصرفاتهم تسيء إلى سمعتهم، فإن أعمالهم لم تكن ذات طبيعة استمرارية، لأن الدافع في أعماقهم لم يكن المثل العليا من أجل الإنسانية ومستقبلها، بل الطموح الشخصي والطمع وشهوة القوة"^(٥٦).

وتنقل المؤلفة فقرة من كتاب كولن "ونحن نقيم صرح الروح"، يشرح فيها هذه الفكرة حيث يقول: "إن الفخامة والعظمة والحياة الصاخبة لفرعون ونمرود ونابليون وقيصر وأمثالهم، لم تقدم شيئاً باسم المستقبل -مهما كبرت أعمالهم في عيون قوم يحسنون الظن بلا تمحيص- بل محال ذلك، لأنهم وضعوا الحق تحت إمرة القوة، وشدوا الروابط الاجتماعية حول المنافع، وقضوا أعمارهم عبداً للنفسانية عبودية لا ترضي عتقا"^(٥٧). ولا شك أن من ذكرهم كولن في هذه الفقرة، لهم أشباه ونظائر في واقعنا المعاصر، خصوصاً في العالم العربي الإسلامي.

وينتقل بنا الكتاب إلى موضوع التعليم، فيبرز كيف أن كولن يضع التعليم والتعلم في صلب الغرض الأساس من الوجود الإنساني؛ وبتعبير آخر، إن الهدف من حياة الإنسان هو أن يصبح إنساناً كاملاً، وهذا تم بطلب العلم والمعرفة، و"كولن يضع هذا الأمر ضمن السياق الأكبر

^(٥٦) محاورات حضارية، ص: ٩٠-٩١.

^(٥٧) ونحن نقيم صرح الروح، فتح الله كولن، ص: ١١٠؛ محاورات حضارية، ص: ٩١.

للعبودية لله. ويمكن أن نصوغه في سياق أكثر اتفاقاً مع فكر أرسطو، وهو أن غرض كل شيء ووظيفته هي أن يكون هو نفسه بكل كماله واكتماله، وكل شيء بطبيعته مزوداً بالقدرات والعناصر الداخلية التي تجعله هو نفسه بشكل كامل، إذا توافر الإطار الملائم، فالبشر يولدون ولديهم القدرة على أن يصبحوا بشراً بكل معنى الكلمة. ويعتقد كولن -مثل أرسطو وسقراط وكونفوشيوس وكثيرين غيرهم- أن الآلية الفطرية لتحقيق الإنسانية بشكل كامل، تكمن في قدرتنا على التعلم^(٥٨). وتستشهد المؤلفة بما قاله كولن في هذا الشأن: "بما أن الحياة الحقيقية بالنسبة للإنسان تكون قائمة بالعلم وبالعرفان؛ لذا فالذين يُهملون التعلم والتعليم يعدّون أمواتاً وإن كانوا على قيد الحياة. ذلك لأن الغاية من خلق الإنسان هي النظر والتأمل وتحصيل المعرفة ونقل ما تعلمه إلى الآخرين"^(٥٩).

وفي الفصل الخامس الذي خصصته المؤلفة للمسؤولية عند كولن وسارتر، تقول "إن كولن لا يرفض سارتر بسبب أفكاره عن المسؤولية، فهما في الحقيقة متفقان إلى حد بعيد في هذا الموضوع، حتى وإن اختلفا في كل ما عداه تقريباً؛ فكولن -كمسلم تنطلق أفكاره كلها من سياق إسلامي- يتحدث عن قضايا الخلافة والمسؤولية الإنسانية في هذا العالم بطريقة مشابهة لكل أقوال علماء الدين تقريباً في الديانات الكبرى التي تنادي بالتوحيد عند التعامل مع تلك الموضوعات"^(٦٠). وتشير المؤلفة إلى أن كولن يناقش الخلافة الإنسانية بالتفصيل في

(٥٨) محاورات حضارية، ص: ١٢٣.

(٥٩) الموازين أو أضواء على الطريق، فتح الله كولن، ص: ١٠؛ محاورات حضارية، ص: ١٢٤.

(٦٠) محاورات حضارية، ص: ١٥٣.

كتاب "ونحن نقيم صرح الروح" بطريقة تبدو أكثر قوة وراديكالية مما في كتاباته الأخرى، حيث ينطلق مع مطلع الكتاب، في مناقشة التدبير الإلهي والإرادة الإنسانية الحرة، مؤكِّداً في النهاية على التوازن الدقيق. وتبرز المؤلفة خطوط التشابه بين كولن وسارتر في موضوع الحرية التي يقول عنها كولن: "إن أهم شيء وأشدَّ ضرورة في حياتنا هو الحرية، فمن الضروري أن نتحمل بعض المسؤوليات بحرية مستمرة وفكر مستمر. إن السكون الدائم يعني إهمال التدخل فيما يحدث حولنا، وترك المشاركة في التكوينات المحيطة بنا، والاستسلام للذوبان الذاتي رغماً عن أنفسنا كقطعة جليد سقطت في الماء"^(٦١). تأتي أهمية هذا الكتاب من أن مؤلفته الأكاديمية الأمريكية درست جيداً أفكار محمد فتح الله كولن، في ضوء الفلسفة الإنسانية، فاستوعبت فلسفته التي لها تأثير -سواء أكان مباشراً أم غير مباشر- على الحياة الفكرية والثقافية -وربما الحياة السياسية أيضاً- في تركيا اليوم. وللأسف فإن هذا المفكر الفيلسوف التركي رائد الدعوة إلى الحوار بين الأديان، يعرف في الغرب أكثر مما يعرف في العالم العربي، بينما معرفته وفهم أفكاره والاطلاع على كتاباته، كل ذلك يشكل مدخلاً لفهم ما يجري في تركيا اليوم القوة الاقتصادية الصاعدة، والنموذج الديمقراطي المتميز في العالم الإسلامي.



^(٦١) ونحن نقيم صرح الروح، فتح الله كولن، ص: ٥٧؛ محاورات حضارية، ص: ١٥٥.



مدارس الغد وجامعات المستقبل ^(٦٢)

في تركيا تجربة فريدة من نوعها، تتمثل في سلسلة المدارس التي فتحت بتشجيع من الأستاذ محمد فتح الله كولن، والتي تعد مهمة لنظام التعليم التركي من ناحيتين؛ الناحية الاجتماعية، وناحية النوعية الجيدة للتعليم. لقد نفتت هذه المدارس -كما يقول الباحث التركي محمد أنس أركنه- الحركة والحيوية في نظام التعليم في تركيا، وكانت -ولا تزال- عاملاً فاعلاً في زيادة الاهتمام بنظام التعليم، سواء في الأوساط المؤيدة لهذه المدارس أو المعارضة لها. وعندما تبين نجاح هذه المدارس -التي تبلغ اليوم المئات داخل تركيا وخارجها- في إعداد الطلاب للجامعات، وظهر نجاحها الباهر في المباريات العلمية العالمية، وانعكست أخبار هذه النجاحات في وسائل الإعلام ووصلت إلى أسماع الرأي العام، توجه العديد من الأوساط إلى ساحة التعليم، إلى درجة أنه لم يحدث مثل هذا الاهتمام المتزايد بالتعليم في تركيا في العهود السابقة، حتى لقد أصبح من المعتاد الآن وجود برامج خاصة للتعليم في وسائل الإعلام، وخصصت الجرائد صفحات لموضوع التعليم وأخباره، وزاد إقبال العديد من الأوساط على التعليم، بعد أن كانت لا تربطها به أي علاقة. ونما

^(٦٢) جريدة "العالم" المغربية، ١٣ أبريل ٢٠١٠.

نتيجة لذلك كله قطاع التعليم وأصبح من القطاعات الخاصة المهمة. وفي دراسة علمية منهجية متقنة مثيرة للانتباه، أطلعتُ عليها أخيراً، يبرز الباحث محمد أنس أركنه، أن هذا الاهتمام البالغ والمتزايد بالتعليم في تركيا، قد تم بواسطة المدارس التي شجّع على فتحها فتح الله كولن، وبفضل النجاحات التي حققتها. وانعكست هذه الحركة الاجتماعية على مستوى التعليم في تركيا، ورفعت من مستواها. وبينما عدت بعض الأوساط هذه المدارس كنذر خطر على المستقبل، نظرت إليها أوساط أخرى بأنها نذر خير، وعدتها أوساط أخرى نشاطات تستهدف الربح. وسواء أكانت الدوافع أيديولوجية أو سياسية أو ربحية، فقد زاد الإقبال اجتماعياً على إنشاء المدارس، ويعد هذا -طبعاً- تطوراً إيجابياً في البلد. زرتُ إحدى هذه المدارس، خلال زيارتي الأخيرة لإسطنبول، حيث شاهدت على الطبيعة، صورة حيّة للتجربة التركية الرائدة في التأسيس لتعليم بالغ الجودة، يأخذ بأحدث المناهج التربوية والطرق التعليمية، ويقتبس من التجارب الناجحة الراقية في الدول المتقدمة في هذا المجال الحيوي. المدرسة التي زرتها تحمل اسم "مدرسة الفاتح"، وهي مؤسسة تعليمية متكاملة، تضم جميع مراحل التعليم، من رياض الأطفال، إلى التعليم الثانوي في شعبته العلمية. وتدرس العلوم في هذه المدرسة باللغة الإنجليزية، ويختار التلاميذ المتسبون إليها من خلال مباراة يشارك فيها الآلاف، من الصفوة الأولى المتقدمة في الدراسة، والتي أظهرت قدرات عالية في استيعاب المواد العلمية. ومما يذكر عن هذه المدرسة التي وجدتها آية في النظام والنظافة وفي الفن المعماري الرائع وفي تكامل الأدوار، أن ثلث التلاميذ الأتراك الذين يشاركون في المسابقات

"الأولمبيات" العلمية العالمية، هم من أبناء هذه المدرسة، إذ يشارك ثلاثون تلميذاً من مجموع المدارس في تركيا في هذه المسابقات، يكون من بينهم عشرة من مدرسة الفاتح، والباقي من مدارس أخرى تعتمد المنهج نفسه وتسير في هذا الاتجاه.

ولكن ما هو الجديد الذي تميّز به هذه المدارس التي أصبحت ظاهرة تعليمية علمية ثقافية اجتماعية مثيرة للاهتمام؟ منذ سنوات، وأنا أحرص على الإجابة عن هذا السؤال. وقبل أيام قليلة فرغتُ من قراءة كتاب صدرت ترجمته العربية بقلم الأستاذ محمد أنس أركنه وبتريجة الأستاذ أورخان محمد علي رحمه الله تحت عنوان "فتح الله كولن: جذوره الفكرية واستشرافاته الحضارية"^(٦٣) الصادر عن دار النيل للطباعة والنشر في القاهرة، فخرجت بمعلومات وافية عن هذه التجربة غير المسبوقة. ووجدت المؤلف يقول: "لقد جلب فتح الله كولن مفهوم التوضيحية إلى نظام التعليم، لأن التعليم سياق طويل المدى وصعب، فهو يستلزم توضيحية جدية وتحملاً وصبراً على الآلام والمشاكل. والتوضيحية كانت أهم عامل في نجاح هذه المدارس؛ فهناك الآلاف من الذين هرعوا إلى خدمة التعليم بكل شوق وبكل رغبة، وأدوا هذه الخدمة ناذرين أنفسهم لخدمة الإنسانية، وراضين بالعيش بكل تقشف وزهد. كان مثل هذا الأمر قد غاب تماماً عن نظام التعليم في تركيا من زمن بعيد"^(٦٤). وهذا الكلام لا بد له من شرح بالنسبة للقارئ غير التركي. ولذلك

^(٦٣) فتح الله كولن.. جذوره الفكرية واستشرافاته الحضارية، محمد أنس أركنه، دار النيل، القاهرة ٢٠١٠.

^(٦٤) فتح الله كولن.. جذوره الفكرية واستشرافاته الحضارية، ص: ٢٨٩.

أتابع النقل عن المؤلف الذي يشرح أبعاد الفلسفة من وراء هذه المدارس، فيقول: "لقد كان من الصعب جذب المربين والمعلمين إلى المناطق الفقيرة. ومع أنه تم وضع نظام مضاعفة الرواتب في بعض هذه المناطق الفقيرة، إلا أنه لم ينفع كثيرًا، وبقي ميل هؤلاء ورغبتهم في البقاء في جو المدنية في المدن الكبيرة. ولكن هذه الصعوبة لم تكن موجودة في هذه المدارس، بل تم إرسال المربين والمعلمين إلى أرجاء الدنيا، وإلى مناطق بدائية محرومة من العديد من الحاجات العصرية، بل أرسلوا حتى إلى مناطق تحدث فيها المعارك، وإلى مناطق خطيرة لا يتوفر فيها عنصر الأمان.. ومع كل هذه المخاطر فقد هرع المربون إلى هذه المناطق متوكلين على الله ومسلمين أمورهم ومستقبلهم له. كأن هؤلاء الذين توكلوا هذا التوكل يبرهنون عمليًا على مدى حاجة نظام التعليم إلى التضحية والفداء"^(٦٥).

ويستمر الأستاذ أنس قائلا: "ولا شك أن صانع هذه التضحية ونذر النفس لخدمة الإنسانية، هو فتح الله كولن. ولكن ما الذي جعل هذا الرجل -الذي سبق أن وصفته في مقال سابق بـ"الرجل الظاهرة"^(٦٦)- وهو عالم دين وخرّيج مدرسة دينية تقليدية، مدفوعًا إلى ولوج ساحة صعبة ومتعبة، وذات نفس طويل مثل ساحة التعليم؟! ما الذي دعا شخصًا حساسًا مثله يتعرض يوميًا لأزمات قلبية وأزمات مرض السكر، إلى ولوج هذا الطريق الطويل المتعب؟!"^(٦٧)، هكذا يتساءل المؤلف، ثم يستطرد:

^(٦٥) فتح الله كولن.. جذوره الفكرية واستشرافاته الحضارية، ص: ٢٩٠.

^(٦٦) مقال "محمد فتح الله كولن.. الرجل الظاهرة"، ص: ٧٦ من هذا الكتاب.

^(٦٧) فتح الله كولن.. جذوره الفكرية واستشرافاته الحضارية، ص: ٢٩٠.

"هناك من يسرد هذه الأسئلة بغیظ فيقول: ماذا يعمل شخص متدين في ساحة التعليم؟ فإن كانت مهنته هي الوعظ، فليعمل في ساحة الوعظ. ولماذا يقوم شخص مختص في العلوم الإسلامية بالولوج إلى ساحة التعليم والتربية وهي ساحة علمانية؟ كانت هذه الأسئلة المطروحة حول شخصيته وحول مشروعه في التعليم والتربية، متداولة كثيراً طوال أعوام التسعينات في القرن الماضي من قبل وسائل الإعلام التركية، ومن قبل أناس عديدين ينتسبون إلى قطاعات مختلفة. وهي أسئلة أجاب عليها الأستاذ فتح الله في العديد من اللقاءات الصحفية التي أجريت معه" (٦٨).

قام فتح الله كولن طوال سنوات عديدة سواء في مواعظه أم في مجالسه أم في مقالاته العديدة التي نشرها بالتطرق بشكل مباشر أو غير مباشر، إلى مشاكل التعليم. ويكاد يكون هو الشخص الوحيد -كما يقول المؤلف- الذي تناول في تركيا هذا الموضوع تناولاً حركياً وأوصله إلى الجماهير الواسعة. فلا نعرف أحداً آخر قام بشرح أهمية التعليم حتى في مواعظه للجماهير الذين كانوا يحضرون للجامع لسماع مواعظه وهم من عامة الناس ومن الكسبة وأصحاب الحرف. لأن موضوع التعليم كان منحصراً في التاريخ القريب، في أوساط المثقفين والمفكرين والساسة، ولم يكن في استطاعة جماهير الناس الاشتراك في النقاشات الدائرة حوله، لا بشكل مباشر ولا بشكل غير مباشر، لأن الاقتناع السائد كان أن نظام التعليم موضوع مهم جداً وخاص جداً إلى درجة لا يمكن معها السماح لجماهير الشعب لبيان الرأي حوله. ولم يذر بخلدهم أبداً أن

(٦٨) فتح الله كولن.. جذوره الفكرية واستشرافاته الحضارية، ص: ٢٩١.

من الممكن أن يقوم عامة الناس بالتبرّع من أموالهم للتعليم دون انتظار أي مقابل. وبتعبير آخر: لم تكن الجماهير الواسعة تشغل أي مكان في المشاريع الاجتماعية والثقافية والسياسية لهؤلاء المثقفين والساسة، فهم كانوا ينظرون إلى المجتمع بأنه عبارة عن جماهير جاهلة لا دور لها سوى تطبيق الأوامر الآتية لهم من فوق. وما قام به فتح الله كولن -كما هو واضح- هو هدم هذه النظرة، لأن هذه النظرة هي التي جعلت التعليم والسياسة والدولة غريبة عن الشعب التركي وأنشأت كادراً نخبويّاً، وولّدت هذه النظرة. ولكن فتح الله كولن كان يرى أن الشعب التركي الذي قاد معركة الاستقلال في جوّ من الفقر والحرمان، قادر على الاشتراك في حل أهمّ مشاكل البلد، وأنه يستطيع الاستعانة به في هذا الموضوع. لذا كانت محاولته هذه فريدة في بابها لا نجد لها مثيلاً في تاريخنا القريب.

يقول المؤلف في تحليل عميق لأبعاد هذه التجربة، "إن فتح الله كولن يرى أن مشكلة التعليم والتربية ليست موجودة في تركيا فقط، بل هي موجودة -وبشكل حاد وجذري- في المدينة المعاصرة. وبلغ من اهتمامه بضرورة التعليم والتربية، حتى كاد أن يجعلها من أسس الإيمان. لأن من أهم أسباب القلق والضياع في المجتمعات الغربية -في رأيه الذي عبّر عنه في مؤلفاته وأحاديثه الصحفية- تمزق وحدة العقل والقلب في الفكر العلمي وفي النظام التعليمي. وما لم تحقق الوحدة في النظام التعليمي والتربوي، وتؤسس العلاقة الفطرية والطبيعية بين الإنسان والكون والله -كما يرى فتح الله كولن- فلا

يوجد أي أمل ولا أي فرصة للخروج من هذا القلق والضياع.^(٦٩) ويرى هذا المفكر المجدّد الذي يكاد يكون غير معروف على نطاق واسع في العالم العربي للأسف، "أنه منذ عدة عصور أبعدت الفلسفة الوضعية نظام التفكير الحديث ونظم التعليم والتربية، وجميع العلاقات الإنسانية والاجتماعية والفكرية، عن جميع المقدسات، وأبعدتها عن الدين. ونتجت عن هذا جميع مظاهر الأزمات الأخلاقية والعمومية التي تعاني منها المجتمعات الحالية. لذا فإن من الأمور الجديدة التي قدّمها فتح الله كولن في موضوع نظام التعليم والتربية، هي هذه النظرة الشاملة للعلاقة بين الإنسان والكون والله. أي السعي من أجل وحدة العقل والقلب"^(٧٠).

ومع انطلاق هذه المدارس من هذا المنطلق، استطاعت تجاوز هذه الفلسفة الوضعية التي تعد من أهم مشاكل نظام التعليم والتربية. ومع أن هذه المدارس دون شك لا تركز على العلوم الدينية، لكنها تضع وحدة القلب والعقل في مركز وفي وسط نظامها التعليمي ومنظومتها العلمية والفكرية. وبتعبير آخر: فهي تسعى إلى أنموذج إنسان ومجتمع يحترم تاريخه وتقاليده وجذوره الإيمانية وهويته الاجتماعية، مع فكر علمي حديث، ومنفتح على كل جديد، يثق بنفسه وبمستقبله"^(٧١). لذا لم تكن هذه المدارس بأطرها النشطة الموفقة والمعاصرة ناجحة في تركيا فقط بل في كل بلد عملت فيه. وهي بلدان كثيرة تكاد تغطي قارات العالم.

^(٦٩) فتح الله كولن.. جذوره الفكرية واستشرافاته الحضارية، ص: ٢٩٢.

^(٧٠) فتح الله كولن.. جذوره الفكرية واستشرافاته الحضارية، ص: ٢٩٣.

^(٧١) فتح الله كولن.. جذوره الفكرية واستشرافاته الحضارية، ص: ٢٩٤.

لقد رأيت هذا الحلم الجميل وقد تحقق في "جامعة الفاتح"، إحدى كبريات الجامعات التركية التي ينتمي طلابها إلى أربع وسبعين جنسية. وهي من الجامعات الراقية، تقع في موقع جميل وسط الحداثة الغناء، وتضم طلاب النخبة في مختلف التخصصات. هذه الجامعة هي مصنع للعقول المفكرة المنتجة ومحضن للإبداع والتجديد في حقول العلم والمعرفة. تناولتُ غذائي في المطعم الجامعي وسط الطلاب وموظفي الإدارة. وكان معنا مدير العلاقات العامة. وكانت ترافقني زوجتي وهي من أسرة التعليم. وانتابني شعور بالفخر والاعتزاز لوجودي في جامعة الصفوة التي توازي الجامعات العالمية الراقية، ووسط الطلاب من جنسيات عديدة.

إن الرؤية المستقبلية للأستاذ فتح الله كولن إلى مدارس الغد وجامعات المستقبل، تتجسد في جامعة الفاتح وأخواتها من الجامعات الأخرى، كما تتمثل في مدارس الفاتح، وفي المئات من المدارس التي تمتد عبر مناطق العالم. حقاً إنها تجربة فريدة مثيرة للاهتمام ذات أفق مستقبلي، تستحق الدراسة والتأمل من لدن صنّاع القرار السياسي التعليمي في العالم الإسلامي.





نفحات قرآنية من نسمات تركية

مؤلف الكتاب "أضواء قرآنية في سماء الوجدان" ^(٧٢) الذي جعلته أول ما أقرأ من كتب في هذا الشهر الكريم، مفكر وفيلسوف من تركيا، هو الأستاذ محمد فتح الله كولن، وفقه الله توفيقاً ملموساً، في تطبيقه في الواقع المعيش، على نحوٍ بالغ الإبهار يستحق كل تقدير.

كان أول عهدي بالقراءة لكتابات الأستاذ محمد فتح الله كولن، قبل سنتين؛ حيث بدأتُ أقرأ مقالاته الافتتاحية التي ينشرها في مجلة "حراء" الراقية التي هي أول مجلة تصدر باللغة العربية في تركيا. ثم قادتني قراءتي لمقالات "حراء" إلى كتاب "النور الخالد: محمد ﷺ مفخرة الإنسانية" ^(٧٣) الذي صدرت طبعته العربية في مجلد ضخمة من ٧٥٧ صفحة ترجمه من التركية إلى العربية الأستاذ أورخان محمد علي. قرأته بتأثر شديد وانجذاب طاع، فإذا بي أمام كتاب في السيرة النبوية ليس كالكتب التي قرأتها في هذا الموضوع، سواء منها كتب التراث الإسلامي، أو الكتب التي أصدرها المؤلفون المحدثون من نهاية القرن التاسع عشر إلى اليوم. وجدته نمطاً فريداً في فهم السيرة النبوية، والتعمق في وقائعها وأحداثها، وفي تحليل موضوعاتها ودروسها، وتقديمها

^(٧٢) أضواء قرآنية في سماء الوجدان، فتح الله كولن، دار النيل، القاهرة ٢٠١٠.

^(٧٣) النور الخالد: محمد ﷺ مفخرة الإنسانية، فتح الله كولن، دار النيل، القاهرة ٢٠٠٦.

إلى القارئ في أسلوب مقنع مبهج ينفذ إلى القلب والعقل بتلقائية. ينهج الأستاذ محمد فتح الله كولن في كتابه "أضواء قرآنية في سماء الوجدان" الذي ترجمه من التركية إلى العربية الأستاذ أورخان محمد علي، وقدم له الأستاذ أديب إبراهيم الدباغ نهجاً جديداً غير معهود في الكتابات الإسلامية. فهو كما قال الدكتور سعاد يلدرم في تقديمه له: "فهم خاص للقرآن الكريم" ^(٧٤). فالكتاب حول تفسير القرآن، فهو يتناول بعض الآيات -حسب تسلسلها في المصحف- ويشير إلى الدقائق الموجودة فيها. ويتبين من النظرة الأولى أن المؤلف ملّم إلماماً جيداً بالتفسير القديمة والتقليدية، ولكنه يفتح مجالات أخرى، و"يقدم شرائح ويومض ومضات تفسيرية دون المساس بأي مقياس من مقاييس علم التفسير أو الإخلال به" ^(٧٥)، حسب تعبير الدكتور سعاد يلدرم. وهذه الشرائح والمضات هي التي أسَمَّيها "فتوحات إلهية" حباً لله بها هذا المؤلف الذي أشهد صادقاً أنه طراز فريد ونسيج وحده بين جمهرة المؤلفين في مثل هذه الموضوعات الإسلامية، على كثرتهم وتعدد مدارسهم وتنوع مشاربهم.

يقول الأستاذ محمد فتح الله كولن في المقدمة التي كتبها لكتابه هذا: "القرآن هو الضوء اللامع للكلمات والحروف في عالم الأزل والأبد. هو صوت الملكوت الذي يخاطب فكر الإنس والجن. وعندما يتحول إلى لؤلؤة خارقة الجمال داخل صدفة لامعة، يرى فيه أبطال البلاغة والأدب جمالاً لا يبهت وحسناً لا يزول" ^(٧٦). ويبدو لنا منهج المؤلف

^(٧٤) أضواء قرآنية في سماء الوجدان، ص: ٩ (مقدمة الكتاب).

^(٧٥) أضواء قرآنية في سماء الوجدان، ص: ١٠ (مقدمة الكتاب).

^(٧٦) أضواء قرآنية في سماء الوجدان، ص: ٢٢.

وَنَفْسُهُ الْإِيمَانِيَّ الْمَشْرِقَ، فِي تَفْسِيرِهِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ * وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَبْ﴾ (الشرح: ٧-٨) عَلَىٰ هَذَا النِّحْوِ: "تَقْدِمُ هَذِهِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ لِلْمُسْلِمِ فِلْسَافَةَ حَرَكِيَّةٍ مُّهِمَّةٍ وَدُسْتَوْرًا لِلْحَيَاةِ. أَجَلٌ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ الْمُؤْمِنُ فِي حَرَكَةٍ دَائِبَةٍ فِي كُلِّ حِينٍ؛ فِي حَرَكَةٍ عِنْدَمَا يَعْمَلُ، وَفِي حَرَكَةٍ عِنْدَمَا يَرْتَاحُ. وَبِعِبَارَةٍ أُخْرَىٰ عَلَيْهِ أَنْ يَنْظُمَ نَفْسَهُ وَفَقْ خُطَّةً لَا يَوْجَدُ فِيهَا أَيُّ فَرَاغٍ فِي حَيَاتِهِ. صَحِيحٌ إِنَّهُ كَأَنسَانٍ يَحْتَاجُ إِلَى الرَّاحَةِ، لِذَا مِنَ الطَّبِيعِيِّ أَنْ يَرْتَاحَ، وَلَكِنْ يَجِبُ أَنْ تَكُونَ هَذِهِ الرَّاحَةُ رَاحَةً نَشِيطَةً وَإِيجَابِيَّةً؛ فَمَثَلًا مِنْ يَتَعَبُ مِنَ الْقِرَاءَةِ وَالكِتَابَةِ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَرْتَاحَ بِالنَّوْمِ أَوْ بِتَغْيِيرِ وَتَبْدِيلِ الْجَوِّ كَأَن يَقْرَأَ الْقُرْآنَ أَوْ يَصَلِّيَ أَوْ يَلْعَبُ الرِّيَاضَةَ أَوْ يَتَسَامَرُ أَوْ يَمْزَحُ مَعَ الْآخَرِينَ الْمَزَاحَ الْمَقْبُولَ شَرْعًا...إِلْخ. وَعِنْدَمَا يَتَعَبُ مِنْ هَذَا يَرْجِعُ مَرَّةً أُخْرَىٰ إِلَى الْقِرَاءَةِ، أَيُّ يَكُونُ فِي حَرَكَةٍ مُسْتَمِرَّةٍ وَدَائِبَةٍ، يَتْرُكُ مُشْغَلَةً مِنَ الْمَشَاغِلِ لِمُشْغَلَةٍ أُخْرَى. أَيُّ يَسْتَرِيحُ وَهُوَ يَعْمَلُ، وَيَعْمَلُ وَهُوَ يَسْتَرِيحُ" (٧٧).

وَيَقُولُ فِي تَفْسِيرِ مَطْلَعِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ: "إِنَّ كَلِمَةَ ﴿هُدًى﴾ الْوَارِدَةَ فِي الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ (البقرة: ٢) هِيَ بَصِيغَةُ الْمَصْدَرِ، وَتَحْمِلُ مَعْنَى أَنَّ الْإِنْسَانَ لَا يَسْتَطِيعُ الْوُصُولَ إِلَى الْهُدَايَةِ وَإِلَى الْهَدَفِ الْمَنْشُودِ وَرَاءَهَا دُونَ جَهْدِهِ الْخَاصِّ. وَبِتَعْبِيرٍ آخَرَ فَإِنَّمَا إِذَا أَخَذْنَا التَّنْوِينَ أَيْضًا بِنَظَرِ الْإِعْتِبَارِ، نَعْلَمُ بِأَنَّ هَذَا الْكِتَابَ -الَّذِي لَا تَوْجَدُ فِيهِ ذَرَّةٌ وَاحِدَةٌ مِنَ الشُّكِّ وَالرَّيْبِ- هُوَ مَصْدَرُ الْهُدَايَةِ لِّلْمُتَّقِينَ.. لِّلْمُتَّقِينَ" فَقَطْ؛ لِأَنَّ نَفْسَهُمْ خَلَّتْ مِنَ الشُّبْهِ وَالرَّيْبِ، وَتَوَجَّهَتْ قُلُوبُهُمْ وَأَرْوَاحُهُمْ لَتَقْبَلِ الْحَقَّ وَرِعَايَةَ سُنَنِ الْفِطْرَةِ الْإِلَهِيَّةِ وَشَرِيعَتِهِ الْغَرَاءِ، وَصَفَتْ نَفْسَهُمْ

واستعدت لقبول الهداية والاستفادة منها دون أن يمنعهم عن ذلك فكر أو حكم مسبق". ثم يضيف المؤلف فيقول: "ولكن كلمة ﴿هُدًى﴾ الموجودة في آخر الآية ﴿أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ﴾ (البقرة: ٥) مذكورة بصيغة المصدر، أي أن الله تعالى قد يتكرم على عباده بالهداية دون وجود علاقة السبب والنتيجة التي خلقها الله وجعلها من أسباب الهداية. وباب التقوى هو الباب الذي يوصل وينفتح على هذا الكرم والعطاء. والمرتبة الأولى لمثل هذه التقوى هو الإيمان والمعرفة الحقة، والمرتبة الثانية هي الوصول إلى مرضاة الله تعالى" (٧٨).

وعند تفسيره للآية الخامسة والثلاثين من سورة النور ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ (النور: ٣٥)، يفيض المؤلف في بيان أخذ، في شرح البعد الإيماني في هذه الآية الكريمة وتبيان المعاني الدقيقة التي تنطوي عليها، فيقول: "الله تعالى هو الذي أظهر الوجود للعيان، وأخرج الكون بوجهه الحالي إلى الوجود وجعله معرضاً أمام البصائر وكتاباً يقرأ، وهو الذي أعطى النور للأبصار والانشراح للقلوب. بدون نوره لا تبصر العيون، ولا تدرك البصائر، وتختلط الأوهام بالعلوم والفرضيات بالحقائق، ويتقلب الوجود كله إلى فوضى لا معنى لها، فلا تحصل هناك فلسفة علوم في الأدمغة، ولا ضياء معرفة في الصدور، ولا يمكن التوصل من نقطة اللقاء بين الآفاق والأنفس من العلم إلى الإيمان، ومن الإيمان إلى المعرفة، ومن المعرفة إلى الإحساس العميق بالعبودية؛ إلا بالله تعالى نور السماوات والأرض، ونور من في السماء والأرض، منور الأنوار عَلَيْهِ السَّلَام" (٧٩).

(٧٨) أضواء قرآنية في سماء الوجدان، ص: ٣٧.

(٧٩) أضواء قرآنية في سماء الوجدان، ص: ٢٤٠.

ويواصل المؤلف شرح هذه الآية الكريمة واستخلاص قانون الحياة منها، فيقول: "بهذا النور يتحقق وجود الشمس أو الشمس في السماء، والألوان وصور الجمال على الأرض، وتنمو البصيرة والإدراك في القلوب، والمعرفة والمحبة والعشق والشوق، والتفكير والتحليل والمنطق في العقل وفي الدماغ. والذين يهتدون إلى الحقيقة عن طريق الاستدلال يهتدون بفضل هذا النور" (٨٠).

ويقف المؤلف عند الآية الثالثة والخمسين من سورة فصلت ﴿سُنْرِیْهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ (فصلت: ٥٣)، فيشير إلى أن الآية تذكر أولاً بأن الآيات الدالة على صدق هذا القرآن وكونه حقاً لا مرء فيه، ستظهر الواحدة بعد الأخرى في الآفاق وفي الأنفس، وأن التناغم الموجود بين الآفاق والأنفس يشير إلى الله تعالى ويعلم عنه، وتبشّر المؤمنين الذين كانوا آنذاك في ضيق شديد، بأن قلوب أهل مكة ومن في خارجها ستفتح، وسينتشر نور الإسلام في الشرق وفي الغرب، وأن الروح المحمّدي سيفرش جناحه على العالم، وتومئ إلى أن الجو خارج مكة سيكون أفضل وأكثر ملاءمة لهم" (٨١).

ويضيف مستخلصاً الدرس والعبرة والمغزى من هذه الآية، فيقول: "إن أسلوب هذه الآية يفتح أمامنا أفق تفكير واسع جداً، ويهيئ لنا إمكانية رصد الحقائق. وكما هو معلوم فإن الأدلة المقدمة لإثبات الحقيقة تنقسم إلى مجموعتين: الأدلة الآفاقية المستقاة من الكون وما يتعلق به من

(٨٠) أضواء قرآنية في سماء الوجدان، ص: ٢٤٠.

(٨١) أضواء قرآنية في سماء الوجدان، ص: ٣٠٣.

حوادث، أي الأدلة من خارج النفس؛ ثم الأدلة المتعلقة بالعالم الداخلي للإنسان من فكر وحس وحدس، والتقييم الشخصي لها^(٨٢).

وينبغي أن نتذكر دائماً أن المؤلف يكتب باللغة التركية، ولكنه يقرأ بالعربية ويتبحر في التراث العربي الإسلامي. وهذا الفيض من إشرافاته وإشاراته ومضاته، هو من أثر الفهم المستنير المتعمق للقرآن الكريم والحياة الطويلة في ظلاله الوارفة. وقد صدرت للمؤلف خلال الفترة الأخيرة، مجموعة من المؤلفات في ترجمتها العربية عن دار النيل في القاهرة، تحت يدي منها الجزء الأول من كتاب "التلال الزمرية: نحو حياة القلب والروح" بترجمة الأستاذ إحسان قاسم الصالحي الذي ترجم "كليات رسائل النور" لسعيد النورسي في عشرة مجلدات كبيرة، و"طرق الإرشاد في الفكر والحياة"، و"حقيقة الخلق ونظرية التطور"، و"ترانيم روح وأشجان قلب".

حقاً إنها نفحات قرآنية منعشة للروح من نسَمات تركية مبهجة للوجدان مغذية للفكر.



(٨٢) أضواء قرآنية في سماء الوجدان، ص: ٣٠٣.



قراءة إيمانية جديدة للقرآن الكريم^(٨٣)

لا أعرف أحداً - حسب علمي - من غير العلماء العرب، صدر له تفسير للقرآن الكريم في هذا العصر، سوى أبو الأعلى المودودي من باكستان، ومحمد حسين الطباطبائي من إيران، وسعيد النورسي من تركيا. هؤلاء الثلاثة هم مفسرو القرآن الكريم في القرن العشرين، من غير المفسرين العرب. مع الملاحظة أن الأول كتب تفسيره باللغة الأوردية وكان ينشره في مجلته "ترجمان القرآن"، والثاني كتبه باللغة العربية ثم ترجمه إلى الفارسية والإنجليزية وعنوانه "الميزان في تفسير القرآن"، والثالث كتبه باللغة العربية ثم ترجم إلى اللغة التركية وعنوانه "إشارات الإعجاز في مظان الإيجاز"، وترجم أيضاً إلى لغات أخرى. أما تفسير أبو الأعلى المودودي فلا أعلم أنه ترجم إلى اللغة العربية.

أما الملاحظة الثانية، فهي أن المفسرين الأول والثاني قد كتبا تفسيراً جامعاً للقرآن الكريم، بينما كتب المفسر الثالث (سعيد النورسي) تفسيراً موجزاً في غاية الإيجاز، ولكنه دقيق وعميق وبلغ.

هذا في عصرنا الحاضر.. أما في الماضي، فإن جُلّ المفسرين لكتاب الله كانوا من غير العرب، الطبري والبيضاوي والقشيري والزمخشري

^(٨٣) جريدة "العالم" المغربية، ٤ سبتمبر ٢٠٠٩.

والرازي، وغيرهم.

لكن هناك مفسراً ثانياً من تركيا، صدر له تفسير لآيات بينات من القرآن الكريم، في كتاب صدر باللغة التركية، ثم ترجم إلى اللغة العربية، وهو كتاب "أضواء قرآنية في سماء الوجدان" لمؤلفه الأستاذ محمد فتح الله كولن. ويتميز هذا المفكر بمنهجه في التأمل في كتاب الله وفي التحليل وفي الرؤية الثاقبة إلى الماضي والحاضر والمستقبل. وإذا كان الأستاذ محمد فتح الله كولن لم يكتب تفسيراً بالمعنى العام، فإنه نظر في آيات من القرآن الكريم نظرات عميقة، فاستخرج منها معاني جديدة لم يسبق إليها، وانتهى إلى خلاصة مبتكرة فيها عمق الفكر وشفافية النظر ورقة الوجدان ونفاذ البصيرة، بحيث يمكن القول إنه قرأ القرآن الكريم قراءة إيمانية جديدة هي غير القراءة الجديدة التي يقول بها رهط من المفكرين الذين هم أبعد ما يكونون عن روح القرآن.

يفسر الأستاذ محمد فتح الله كولن الآية السابعة والسبعين من سورة القصص ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾ (القصص: ٧٧)، فيقول: "فهمت هذه الآية الكريمة من قبل الكثيرين على أنها تشير إلى طلب الدنيا على الدوام. ولكن من يعرف شيئاً قليلاً من اللغة العربية، يعرف خطأ هذا الرأي. فمن يدقق في سياق الآية وبدائتها ير المعنى الآتي: تقول الآية ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ﴾، أي اجعل كل ما أعطاك الله وسيلة للدار الآخرة. وفعل ﴿وَابْتَغِ﴾ هنا يعني شيئاً أكثر من (وَاطْلُبْ)، لأنه يعني: اطلب واستعمل ما آتاك الله من قلب وحس وشعور وإدراك وصحة ومال وولد... إلخ - بل وحتى كل استعداداتك الفعلية والكامنة - واستخدمها في طلب الدار الآخرة. ثم تأتي الآية ﴿وَلَا

تَنْسَ نَصِيكَ مِنَ الدُّنْيَا ﴿٨٤﴾ لموازنة المسألة. أجل علينا أن نضع الغد وما بعد الغد أمام أنظارنا على الدوام، وفي الوقت نفسه لا ننسى ما يعود للدنيا من أمور وأشياء. إذن فتناول الشق الثاني فقط من الآية وتوجيه الأنظار إلى الدنيا فقط وجعلها هي وحدها محور النشاط، خطأ فاحش^(٨٤).

ويمضي في استخراج معنى آخر من هذه الآية الكريمة، فيقول: "ويمكن النظر إلى هذه الآية من زاوية أخرى: اطلبوا الدنيا حسب قيمتها، واطلبوا الآخرة حسب قيمتها. يمكن أن يكون هذا قاعدة من القواعد. إذن فالقرآن يعطي الإنسان بهذه الآية مقياساً، ويطلب منه استعماله؛ ويجب أن نفهم الآية بهذا المعنى، لأن الدنيا حسب القلوب المطمئنة كيوم عرفات، والأيام الماضية للدنيا بالنسبة للعيد كيوم عرفات. أما العيد الحقيقي فوراء الأفق، بل وراء وراء الأفق. لذا يجب المحافظة على هذا التوازن وصيانه، وعيش يوم عرفة حق عيشه. ومن يفقد يوم عرفة في الحج يستطيع إدراكه بعد عام واحد، ولكن من يفقد يوم عرفة الآخرة -عندما نشبه هذا اليوم بالحياة الدنيا- وفاته ذلك اليوم، فلن يستطيع إدراكه مرة أخرى"^(٨٥).

وعندما يتأمل المؤلف في الآية العاشرة من سورة الحشر ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ (الحشر: ١٠)، فيفيض قائلاً: "يجب أولاً أن نعلم جيداً بأن الدار الآخرة والجنة هما المكانان الأصليان اللذان يطرح فيها الغل والشر من القلوب. ولو أخرجت هذه المشاعر -التي هي من أسس الامتحان- من القلوب في الدنيا، لانتقلب الإنسان فطرة إلى ملك من الملائكة. بينما خلق الله الإنسان

(٨٤) أضواء قرآنية في سماء الوجدان، فتح الله كولن، دار النيل، القاهرة ٢٠١٠، ص: ٢٧٠.

(٨٥) أضواء قرآنية في سماء الوجدان، ص: ٢٧٠-٢٧١.

في هذه الدنيا بماهية قابلة للخير وللشر أيضاً. ولو فرضنا المستحيل وأخرجت هذه المشاعر من قلب الإنسان في الدنيا، لنبتت هذه المشاعر في القلب مرة أخرى في يوم من الأيام كما ينبت الشجر أو الأظافر من جديد، لأنها لصيقة بفطرة الإنسان. لهذا السبب فبدلاً من صيغة الدعاء "نَزَع"، وَرَدَ التَّوَجَّهَ لِّلَّهِ تَعَالَى الفاعل الحقيقي بصيغة ﴿وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾. إذن، فالواجب الملقى على عاتق الإنسان هنا هو التوجه بالدعاء القولي والفعلية لله تعالى ومحاولة التخلص من هذه المشاعر التي تعد مثل الأشواك المعنوية المستقرة في القلب. وبهذه الوسيلة يستطيع التطهر من المشاعر السيئة ويكون أهلاً للجنة ويقبله الله تعالى في رضوانه" (٨٦).

ثم يستطرد بعد هذه الإشرافات المضيئة، في بيان الدروس المستخلصة من هذه الآية الكريمة، فيقول: "وكأن هناك رسالة موجهة إلينا في هذه الآية الكريمة تطلب منا أن نعيد نظرتنا بالنسبة للسلف الصالح، أي قبول التابعين للصحابة، وقبول تابع التابعين للتابعين. أي تدعونا للتصرف باحترام تجاه أرباب القلم وأرباب الكلام من رجال الحركة والفكر الذين تركوا في حياتنا الدينية وفي مشاعرنا وأفكارنا وعقيدتنا - بل حتى في التفسير وعلم الكلام والفقه - أثراً لا يمحي وميراثاً كبيراً لنا" (٨٧).

ويفضي هذا الاستنتاج بالكاتب إلى الوقوف وقفة متأنية عند الآية العاشرة من سورة الحجرات ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ (الحجرات: ١٠)، والآية الواحدة والسبعين من سورة التوبة ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ

(٨٦) أضواء قرآنية في سماء الوجدان، ص: ٣٢٧.

(٨٧) أضواء قرآنية في سماء الوجدان، ص: ٣٢٧-٣٢٨.

بَعْضُ ﴿التوبة: ٧١﴾، فيقول: "إن الذين توجد بينهم رابطة الإيمان ورابطة الإسلام عليهم أن يتحابوا ويحترموا أسلافهم، بل ويغضّوا النظر عن بعض تقصيراتهم المحتملة، وأن يدعوا بالخير لمن سبقوهم، وألا يحملوا -على الإطلاق- أي حقد أو غلّ أو عداء تجاههم. والذين يدعون انتسابهم إلى الرسول ﷺ عليهم ألا يفكروا وألا يتكلموا إلا بخير وألا يتصرفوا إلا بخير، تحقيقاً للآية الكريمة ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ (المائدة: ٢)" (٨٨).

هذا التوجيه الروحي الشفاف هو الطابع المميز لكتابات الأستاذ محمد فتح الله كولن، وهو البذرة الطيبة التي زرعها فيه أستاذه بديع الزمان سعيد النورسي، وهو المنهج الذي يسير عليه المؤلف في خدمة الإيمان والقرآن، بالأسلوب الحكيم الذي لا أبالغ إذا قلت إنه أسلوب فريد من نوعه في العالم الإسلامي.

ومن هنا يأتي نجاح خدام رسائل النور في تركيا وفي غيرها من بلدان العالم.



(٨٨) أضواء قرآنية في سماء الوجدان، ص: ٣٢٨.



تأملات وجدانية في آيات قرآنية^(٨٩)

إذا كانت قراءة القرآن الكريم في شهر رمضان من فضائل الأعمال وعظائم الطاعات، فإن التدبّر في كتاب الله والتأمل في آياته والتماس الدروس والعبر والعظات من أولئك الذين أكرمهم الله بأن آتاهم حظًا من العلم الذي ينفذون به إلى أعماق المعاني القرآنية، من الواجبات التي يحرص المؤمن على القيام بها في هذا الشهر الفضيل.

وأواصل في هذا المقال، القراءة في كتاب الأستاذ محمد فتح الله كُولن "أضواء قرآنية في سماء الوجدان" الذي كتبه باللغة التركية وترجمه الأستاذ أورخان محمد علي إلى اللغة العربية، وصدر عن دار النيل للطباعة والنشر في القاهرة.. لنعيش في أجوائه مع تأملاته الإيمانية في آيات قرآنية، حيث نجده يؤكد "أن الدين هو روح الحياة، وأن إعلاء كلمة الله أقدس الوظائف، وأن صرف الحياة وإفنائها في هذا السبيل، هو السبيل لطرق باب الحياة الأبدية والوجود الأبدي، وبمقياس وضع رضا الله تعالى كغاية من الغايات، ستهب في المقابل عنايته ورعايته وحمانيته، وأن هذه العناية والرعاية معروضتان في كل زمان ومكان وبنسبة مقاربة للعناية المذكورة للصحابة رضي الله عنهم، كلما توفّرت شروط هذه العناية وظروفها

^(٨٩) جريدة "العَلَم" المغربية، ١٧ سبتمبر ٢٠٠٩.

وأسابيها، وأن من كان من المؤمنين في مثل هذا المستوى من الإيمان والتسليم والتوكل، يستطيع التصدي حتى لنيران نمرود بصدر مفتوح وبقلب مطمئن، بل ربما قلب تلك النيران بردًا وسلامًا^(٩٠). جاء ذلك في معرض تفسيره التأملية العميق للآية الرابعة والخمسين بعد المائة من سورة آل عمران ﴿ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُم مِّن بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَى طَائِفَةً مِّنْكُمْ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ (آل عمران: ١٥٤).

بهذه الروح المشبعة بالإيمان المشعة بأنواره، يبرز المؤلف في كتابه هذا، تأثير هذه الآية الكريمة في نفوس المؤمنين، فيقول: "كان طلاب النور عندما يتعرّضون لأيّ أذى أو ظلم وتعسف، يذكرهم الأستاذ بديع الزمان -سعيد النورسي العارف بالله المصلح المفكر المربي- بضرورة تكرار هذه الآية وتفسيرها. وكشخص مثلي استفاد من درس الأستاذ النورسي، لنقرأ هذه الآية مرّة أخرى ولنأخذ منها الدرس الواجب أخذه"^(٩١).

ويواصل تأملاته في الآية السالفة الذكر متعمقًا في معانيها، فيقول: "وفي مقابل الحياة الهادئة المطمئنة لهؤلاء، هناك زمرة تشارك هؤلاء الظروف نفسها، غير أنها لا تتنفس الأجواء نفسها. لذا نراها منكبة على متطلبات أهواء أنفسها، فتعكس الشبهات الموجودة في مشاعرهم

(٩٠) أعضاء قرآنية في سماء الوجدان، فتح الله كولن، دار النيل، القاهرة ٢٠١٠، ص: ١١٠.

(٩١) أعضاء قرآنية في سماء الوجدان، ص: ١٠٩.

وأفكارهم لترسم لهم سبل حياة مليئة بالتناقضات المخجلة. لذا لا يرى هؤلاء وجه الراحة والاطمئنان أبداً، بل سيعيشون حالة تذبذب، تكون رؤوسهم مملوءة بالأفكار الجاهلية، وحتى لو آمن هؤلاء، فإن أفكارهم حول الاطمئنان إلى الله تعالى ستكون مشوبة بسوء الظن، والآية الكريمة ﴿وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ﴾ توضح حالة اليأس العكرة في مشاعر هؤلاء وما يعانونه من تردد وإحباط^(٩٢).

وحين يفسر الآية التسعين بعد المائة من سورة آل عمران أيضاً ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ (آل عمران: ١٩٠)، فيفيض المؤلف في التعبير عن الواقع الذي يعيشه المؤمنون في هذا العصر، فيقول: "يعد مثل هذا التأمل الشامل من أهم نواقصنا... أجل! تأمل يجدد إيماننا ويحفظه حياً على الدوام. فكما ينتفض الجسم إن صببت عليه قطرة ماء باردة لم يألفها، كذلك علينا العثور في مرصاد الفكر والتأمل، على ما يجعل إيماننا ينتفض، ويجعلنا نشاهد تجليات أسماء وصفات المالك الحقيقي ﷻ للأشياء وصاحبها والمؤثر الحقيقي فيها، وأن نقضي الأيام الباقية من حياتنا في دائرة رضا الله تعالى وفي ضوء هذا النور المتولد من عملية التفكير والتأمل هذه"^(٩٣).

ويستطرد المؤلف قائلاً: "ولكن الشعور والسماع والفهم وتقييم الروح والمعنى والصوت والنفس واللون والزينة واللغة والشوق الذي يسري جميعها في السماوات والأرض وما بينهما، لا يكون متيسراً للجميع، تبدو هناك الحاجة إلى من يستطيع إدراك هذا الغنى وسبر غوره في الألوان

(٩٢) أضواء قرآنية في سماء الوجدان، ص: ١١٠.

(٩٣) أضواء قرآنية في سماء الوجدان، ص: ١١١.

وهذا التناغم في الأصوات والموسيقى، ثم تقييمه من قِبل فئة المثقفين من ﴿لأولي الألباب﴾ الذين لم تفسد عقولهم بالأخطاء والانحرافات، ولم تفسد لديهم المعايير والمقاييس بالأهواء النفسية.. نحتاج إلى ﴿لأولي الألباب﴾ الذين يستطيعون سبر غور السماوات والأرض بجميع صفاتها التي يذكرنا بها مفهوم المكان، وما يتطلبه خلق ما فيها من الأشياء والكائنات من توجه الإرادة والاختيار من جميع نواحيها انطلاقاً من مبدأ تناسب العلية للوصول عن طريق المنطق والتحليل والتركيب إلى المسبب الكامل وإلى صاحب القدرة الكاملة ﷻ" (٩٤).

وبيّن الأستاذ محمد فتح الله كولن الأسباب التي تجعل فئة من الناس لا تدرك عمق هذه المعاني الإيمانية، فيقول: "لقد خلق روح كل إنسان وعقله بحيث يستطيع فهم هذا وإدراكه فطرياً، ولكن العوائق من أمثال الكبرياء وتجاوز الحدّ والخطأ في زاوية النظر، تمنع رؤية الهدف بكل وضوح. وحتى لو بلغ الإنسان ذروة العلم، فلن يستطيع الخلاص من القرارات الخاطئة ما لم يستطع الخلاص من هذه العوائق" (٩٥).

لقد وقفتُ طويلاً أمام قول المؤلف: "... وأن نقضي الأيام الباقية من حياتنا في دائرة رضا الله تعالى وفي ضوء هذا النور المتولد من عملية التفكير والتأمل". وأحسب أن الأستاذ محمد فتح الله كولن يدعونا جميعاً إلى وقفة تأمل للذات ومراجعة للنفس للارتقاء بها إلى مستوى رضا الله تعالى والعيش في كنف رحمته التي وسعت كل شيء. وهي دعوة نحتاج إليها في هذا الوقت، وفي كل وقت، كما نحتاج إلى ﴿لأولي الألباب﴾

(٩٤) أضواء قرآنية في سماء الوجدان، ص: ١١١.

(٩٥) أضواء قرآنية في سماء الوجدان، ص: ١١١.

الذين يملكون البوصلة للاهتداء بها إلى سبل السلام، والذين يأخذون بأيدي الناس ليسلكوا بهم طريق الحق والخير والفضيلة والأمان والسلام. ولستُ أشك في أن المؤلف وأستاذه الكبير سعيد النورسي، من هذه الطائفة التي أكرمها الله تعالى بخصال فريدة سامية وسجايا حميدة راقية نحن أحوج ما نكون إليها.

ويشرح المؤلف الآية الحادية والخمسين بعد المائتين من سورة البقرة ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ (البقرة: ٢٥١) شرحاً عميقاً يلفت النظر ويشرح له الصدر، فيقول: "يوجه الله تعالى أنظارنا في هذه الآية الكريمة -علاوة على أمور عدة- حول وجود ميزان وتوازن ومقياس في عالم الإنسان كوجوده في عالم الطبيعة والبيئة. فكل شيء قد وضع له نظام ومقياس معين وقواعد معينة. لذا ومن أجل تأمين مثل هذا التوازن لحساب الإنسانية ومن أجلها، يهديننا الله تعالى إلى سواء السبيل ويخلق في جوانحنا الميل نحو الكفاح في هذا السبيل. ذلك لأن هذه النتيجة يجب أن تتحقق بيد الإنسان في دائرة الأسباب، وإلا أصبحت الدنيا مكاناً لا يطاق فيه العيش مثلما ذكرت الآية الكريمة" (٩٦).

وبعد أن يشرح معاني الفساد في الآية الكريمة ويبيّن أسبابه، يتحدث عن ضرورة مواجهة الفساد بهذا المنهج الحكيم الذي أرى أنه يشكل في حد ذاته برنامجاً لمحاربة الإفساد بكل صنفه وللتمكن للإصلاح بكل مدلولاته، فيقول: "لذا كان من واجب أهل العقل والإيمان والعرفان

القيام بإنقاذ العالم إن كان الفساد قد استشرى فيه، فإن لم يكن العالم قد فسد، بذل الجهد من أجل استمرار الصلاح إن كان هناك أي احتمال لحدوث الفساد ومجيئه، والقيام بالسيطرة على أنصار الشغب والفوضى والفساد وعدم إفساح المجال للمزيد من الفساد. ولا يكون هذا إلا بفتح دور العلم والتربية والتثقيف، وفتح مراكز الإرشاد والتوعية، وتكوين المؤسسات الضرورية في هذا المجال، ووضع البدائل العديدة في هذا الصدد، وسدّ كل منافذ وثغرات الفتنة والفساد، وعدم السماح بفتح أي باب محتمل للفتنة، ولينزل فضل الله تعالى وكرمه على من يستطيع تنفيذ هذا. إن النجاح في تنفيذ هذا وتطبيقه سيكون وسام فخر ووسام فضيلة لا يقدر بثمن على صدور القائمين به" (٩٧).

ومن خلال رؤية شمولية ونظر سديد إلى الواقع الإنساني، يضع المؤلف الآية الكريمة في الإطار الذي يشمل مجمل العلاقات الإنسانية في هذه المرحلة من التاريخ، فيقول: "أجل! إن لم يتم تطويع بعض المشاعر المركوزة في طبيعة الإنسان -لغايات وحكم معينة- وترويضها بوساطة المبادئ الدينية وقيمها، فإن الإنسان لن يكون بعيداً عن التخريب وعن الظلم والاعتداء. فإن لم يكن هناك أناس قد طوّروا مشاعرهم الإنسانية بالإيمان والإسلام وأصبحوا جنوداً للحق وللنظام ناشرين الأمن والطمأنينة، كانت الدنيا عالمًا للمتجاوزين حدودهم والمعتدين، وساد الظلم والذلة فيها. أما من ناحية العلاقات والتوازنات الدولية، فإن الأمن والثقة بين الدول وبين المجتمعات تكون مفقودة، وتصبح الأمور في يد

(٩٧) أعضاء قرآنية في سماء الوجدان، ص: ٩٢.

الدول الغالبة والمفسدة"^(٩٨). ويصف المؤلف هذه النتيجة التي ينتهي إليها العالم بأنها "هزيمة للإنسانية وتقلبها في أحضان الفساد والفوضى"، ويقول: "إن في مثل هذا الجو لا يمكن الحديث عن العيش كإنسان ولا عن العلم ولا عن الفن ولا عن الإيمان، ولا يبقى هناك أمن أو ثقة، لا في الأمة ولا في المجتمع. وإذا ساد مثل هذا الجو الذي تسود فيه الفوضى، يصبح الناس ذئابًا، ويرى القوي أن الحق بجانبه على الدوام، ويضع القوانين حسب أهوائه، أي يحاول أن يقيم عالمًا تسود فيه فلسفة عرجاء ومشاعر أنانية"^(٩٩).

أرأيتم كيف يغوص الأستاذ محمد فتح الله كولن في بحر معاني الآيات القرآنية من خلال تأملاته الإيمانية ليخرج لنا اللآلئ والجواهر.



^(٩٨) أضواء قرآنية في سماء الوجدان، ص: ٩١.

^(٩٩) أضواء قرآنية في سماء الوجدان، ص: ٩١-٩٢.



أنوار القرآن تضيء العقل والوجدان^(١٠٠)

"القرآن نور متبلور في القلوب، ومنبع نور للقلوب، ومعرض حقائق، ولكنه لا يعرفه على حقيقته سوى القلوب التي تستطيع حدس كل جمال الكون عند رؤيتها لزهرة واحدة، ومشاهدة طوفان من رؤية قطرة واحدة"^(١٠١). هكذا يعرف الأستاذ محمد فتح الله كولن القرآن الكريم في كتابه "الموازنين أو أضواء على الطريق" الذي كتبه بالتركية وترجمه إلى العربية الأستاذ أورخان محمد علي، وصدر عن دار النيل للطباعة والنشر في القاهرة. ففي تأملاته النورانية في القرآن الكريم، يقول المؤلف: "استطاع الإنسان بفضل القرآن أن يصل إلى مرتبة سامية، وهي مرتبة مخاطبة الله تعالى. والإنسان الذي يعي وصوله إلى هذه المرتبة، إن حلف أنه استمع بلسان القرآن الكريم إلى الله وأنه تحدث معه، لا يكون حائثاً في حلفه"^(١٠٢).

ويقول عن فضائل القرآن ومكارمه في عبارات مشرقة: "القرآن هو الكتاب الوحيد الذي يعلم الإنسان معنى الإنسان وماهيته والحق والحكمة وذات الله وصفاته وأسمائه الحسنی، وذلك بأدق ميزان. وليس هناك كتاب

^(١٠٠) جريدة "العَلَم" المغربية، ١١ سبتمبر ٢٠٠٩.

^(١٠١) الموازنين أو أضواء على الطريق، فتح الله كولن، دار النيل، القاهرة ٢٠١٠، ص: ١٤١.

^(١٠٢) الموازنين أو أضواء على الطريق، ص: ١٤٤.

يمثله في هذا الميدان أبداً. ولو طالعت حكم الأصفياء والأولياء وفلسفة الفلاسفة الباحثين عن الحق، لعرفت ذلك بنفسك" (١٠٣).

إن المؤلف يدرك إدراكاً عميقاً الأهداف التي يسعى إلى تحقيقها أعداء القرآن - وهم كثر-، فيقول موضحاً هذا الأمر: "الذين يرون القرآن منبعاً للأساطير والخرافات، هم الذين ورثوا هذا الهذيان الأحمق من عصر الجاهلية العربية قبل أربعة عشر قرناً. والحكمة والفلسفة الحقيقية تسخران من هذه النظرة" (١٠٤). ثم يستطرد في كشف نوايا من يهاجم القرآن -وقد نشطوا في الفترة الأخيرة- متحدّياً إياهم قائلاً: "ويا ليت الذين يهجمون على القرآن وعلى تعاليمه، يستطيعون تقديم أي شيء بديلاً عنه لصالح النظام البشري وأمنه وسعادته. والحقيقة أن من الصعب جداً فهم سبب هذا التمرد وهذا العناد ضد القرآن في الوقت الذي تتخط فيه جميع الحضارات والمدنيات المخالفة لتعاليم القرآن وتعاني الويل والثبور وتتجرع الآلام، كما تعاني جميع القلوب الخالية من نور القرآن أزمات نفسية حادة ومؤلمة" (١٠٥).

والمؤلف يضع يده على مفصل الصراع المحتدم اليوم -كما كان محتدماً طيلة القرون الماضية- بين المؤمنين بالقرآن وبين المحاربين له بشتى الأساليب. وقد ظهر منها اليوم أسلوب في غاية الدهاء والمكر والخداع، وهو "محاربة القرآن من الداخل"، من خلال التأليف في موضوعات قرآنية من مثل "مدخل إلى القرآن"، و"فهم القرآن"، و"قراءة

(١٠٣) الموازين أو أضواء على الطريق، ص: ١٤٢.

(١٠٤) الموازين أو أضواء على الطريق، ص: ١٤٣.

(١٠٥) الموازين أو أضواء على الطريق، ص: ١٤٣.

معاصرة للقرآن"، و"القرآن والكتاب"، و"تاريخ القرآن"، و"القرآن والتأويل"، و"تاريخانية (؟) القرآن"، إلى آخر هذه العناوين التي تنتشر اليوم ويروج لها على نطاق واسع.

يقول الأستاذ محمد فتح الله كولن: "الذي يؤمن بالقرآن يؤمن بمحمد ﷺ، والذي يؤمن بمحمد ﷺ، يؤمن بالله تعالى. فمن لا يؤمن بالقرآن لا يؤمن بمحمد ﷺ، ومن لا يؤمن بمحمد ﷺ لا يؤمن بالله تعالى... هذه هي أبعاد الإسلام الحقيقية" (١٠٦).

وقياساً على هذه الحقيقة الإيمانية، أقول إن من وضع كتاباً في الفلسفة مخصصاً للمدارس الثانوية يكفر فيه بالله تعالى وينكر الوحي ويشكك في مبادئ الإيمان، وهو الكتاب الذي اعتمد في مدارس الدولة لمدة ثلاث عشرة سنة، كيف نثق فيه ونقبل منه اليوم أن يكتب لنا عن مدخل القرآن وعن فهم القرآن؟!

لقد وجدتُ الأستاذ محمد فتح الله كولن متفائلاً بحكم إيمانه القوي الثابت الراسخ. وأنا أشاركه هذا التفاؤل، فهو يقول: "أنا أرى بأنه في المستقبل القريب ستشهد الإنسانية بنظرات ملؤها الإعجاب والتقدير، كيف أن شلالات مختلف العلوم والفنون تتجه نحو القرآن وتصب فيه. عند ذلك سيجد العلماء والباحثون والفنانون أنفسهم في البحر نفسه. ليس من المبالغة أبداً النظر إلى المستقبل بأنه سيكون عهد القرآن، ذلك لأنه الكلام الذي يرى الماضي والحاضر والمستقبل في آن واحد" (١٠٧). فقطعاً ويقيناً أن المستقبل للقرآن الكريم، وإن الإنسانية ستؤوب إلى القرآن طال

(١٠٦) الموازين أو أضواء على الطريق، ص: ١٤٤.

(١٠٧) الموازين أو أضواء على الطريق، ص: ١٤٤-١٤٥.

الزمن أم قصر. نقول هذا عن يقين مطلق وإيمان كامل لا تزيده الأيام إلا رسوخاً ووثوقاً. والمؤلف يعبر عن هذا اليقين في جميع مؤلفاته.

ففي كتابه "أضواء قرآنية في سماء الوجدان"، يذهب الأستاذ محمد فتح الله كولن مذهباً جديداً في تفسير الآية العاشرة من سورة الأنبياء: ﴿لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ (الأنبياء: ١٠)، فيقول: "إن هذه الآية الكريمة تشير لمخاطبيها آنذاك بالوضع الذي سيتبوأونه في المستقبل، وتقول: إنكم ستشغلون في المستقبل موقعاً مشرفاً لن تستطيع أمة أخرى بلوغه، وإن هذا القرآن سيحفظ لسانكم ولغتك من الضياع والسقوط، ويبقى مرجعاً لكل من يريد فهم دينه. نجد هذا المعنى في كلمة ﴿ذِكْرُكُمْ﴾، وهي كلمة لا تفيد معنى الموعظة فحسب، بل تشمل أيضاً معنى بقاء ذكركم، وعدم نسيانه، وعدم زواله" (١٠٨). وهذا معنى عميق وفهم مستنير للآية الكريمة، اهتدى إليه المؤلف المفعم قلبه بنور القرآن، المشرق قلمه من نور القرآن، فجاء شرحه لها وتأمله فيها، مشبعاً بنسائم القرآن مضمخاً بعطره الفواح.

ويبلغ المؤلف مستوى راقياً من الإبداع البياني في شرحه للآية السابعة والثمانين من سورة الأنبياء ﴿فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ (الأنبياء: ٨٧)، فيقول: "إذا تناولنا هذه الآية نراها تعلن عظمة الله ووحدانيته بكل قوة ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا﴾... وهنا أمر أشار إليه بديع الزمان سعيد النورسي، وهو كون ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا﴾ جملة مشيرة إلى مستقبلنا. أجل!. فلو تناولنا الموضوع

ضمن قاعدة "الانطباق مع مقتضى الحال"، فإن الله تعالى وحده هو الذي يستطيع أن يتقننا - سواء على مستوى الفرد أو على مستوى المجتمع - من الظلام إلى النور، وأن يوصلنا إلى شاطئ السلامة. ويكون هذا بشعار ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ﴾ الذي يحتوي على جميع أنواع التوحيد^(١٠٩). ويختتم المؤلف شرحه هذا بقوله البليغ: "ولكن يجب هنا الإشارة إلى أمر آخر، وهو أن النبي ﷺ نادى ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ﴾ بسبب الظرف الخاص المحيط به، أما نحن فنقول ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ بدلاً من ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ﴾ بسبب الظروف المحيطة بنا..^(١١٠) وهذه سباحة في بحر معاني القرآن لاستخراج اللآلئ من أعماقه، على نحو يربط الماضي بالحاضر بالمستقبل ربطاً يحمل على التأمل في واقعنا المعيش.

لقد صدق المؤلف حينما قال في كتابه "الموازن": إن "الذين يحولون دون فهم المسلمين لقرآنهم والتعمق في معانيه، يكونون قد حالوا بينهم وبين روح الدين وبين لب الإسلام وجوهره"^(١١١). وأعرف رهطاً من هؤلاء الذين يمتهنون الكتابة في الصحف والمجلات ويصدرون الكتب تباعاً، وشغلهم الشاغل هو الحول بين المسلمين وبين التعمق في فهم كتاب الله وتدبره على النحو الذي يملأ قلوبهم بأنوار القرآن. وفي فترة سابقة كان جل هؤلاء ممن هم من غير جلدتنا، أما اليوم، فقد تواطأ هؤلاء مع أندادهم من البلدان الغربية، وصاروا من عتاة خصوم القرآن وإن تحت شعار "القراءة الجديدة للقرآن" أو "الفهم المستنير للقرآن".

^(١٠٩) أضواء قرآنية في سماء الوجدان، ص: ٢٣٤.

^(١١٠) أضواء قرآنية في سماء الوجدان، ص: ٢٣٤.

^(١١١) الموازن أو أضواء على الطريق، ص: ١٤٤.

والغريب أن لا أحد يتصدى لهم بالعلم وبالفكر وبالحجة والمنطق، عدا قلة محدودة من الغيورين على دينهم تقوم بواجبها في هذا الصدد في حدود ضيقة.





الرقائق التركية في التلال الزمردية..

نحو حياة القلب والروح^(١١٢)

من الكتب الجديدة الجيدة والمتميزة التي صدرت أخيراً في تركيا، كتاب للمفكر المجدّد المصلح المربي القدوة الأستاذ محمد فتح الله كولن، بعنوان "التلال الزمردية: نحو حياة القلب والروح"^(١١٣)، ترجمه من اللغة التركية إلى اللغة العربية، الأستاذ إحسان قاسم الصالحي. وصدرت الطبعة الرابعة للجزء الأول عن دار النيل للطباعة والنشر في القاهرة خلال السنة الحالية، وقدم له الأستاذ أديب إبراهيم الدباغ. وعلمت من المترجم أنه يعمل في ترجمة الجزء الثاني.

إن "هذا الكتاب مرآة للروح تنعكس على صفحاته، وتعكسه على الآخرين، والروح لا جهات لها، فمن أين أتيتها فقد أتيتها، وكذلك من أين دلفت إلى هذا الكتاب، فقد دلفت إلى الكتاب كله، وإلى روح صاحب الكتاب"^(١١٤)، بهذه الكلمات الجامعة المعبرة الموحية، يقدم أديب إبراهيم الدباغ الكتاب إلى القارئ. وأشهد أنني قرأت الجزء الأول من هذا الكتاب مرّتين؛ المرة الأولى كانت في شهر مارس الماضي في

^(١١٢) جريدة "العلم" المغربية، ١٧ أغسطس ٢٠١٠.

^(١١٣) التلال الزمردية: نحو حياة القلب والروح-١، فتح الله كولن، دار النيل، القاهرة ٢٠١٠.

^(١١٤) التلال الزمردية-١، ص: ١٠ (تقديم الأستاذ أديب الدباغ).

طبعته الثانية، والمرة الثانية كانت أثناء زيارتي الأخيرة إلى إسطنبول مع الأسرة في الأسبوع الأخير من شهر يوليو عام ٢٠١١م. ولديّ في مكتبي الطبعتان الثانية والرابعة. وكنت قد قرأت كتباً أخرى للمؤلف خلال السنتين الماضيتين، أذكر منها كتابه القيم الذي لم أقع على مثيل له "النور الخالد: محمد ﷺ مفخرة الإنسانية"^(١١٥)، وكتاب "أضواء قرآنية في سماء الوجدان"^(١١٦)، وعناوين أخرى. وقد بلغ عدد المؤلفات التي صدرت للمؤلف باللغة العربية حتى الآن، أربعة عشر كتاباً، منها "سلسلة النور الخالد" التي تقع في سبعة أجزاء.

ولكن "التلال الزمردية" نسيج وحده، ليس فقط من بين مؤلفات الأستاذ محمد فتح الله كولن، وإنما من بين الكتب التي صدرت باللغة العربية فيما أعلم، إذ لا أعرف كتاباً في المكتبة العربية المعاصرة ينحو هذا المنحى وبهذا المستوى من العمق والشفافية والوهج الروحي والتألق الفكري. ولذلك احتفيتُ بالكتاب، واستمتعتُ به، وأفدتُ منه، ووجدت فيه ما لم أجده في غيره. ولا غرو فالمؤلف خرج من تحت معطف بديع الزمان سعيد النورسي، العارف بالله المصلح المنقذ للإيمان المجدد للروح الذي كان له التأثير القوي في تنشئة الأجيال التركية على الإيمان والتمسك بالقرآن والسنة، في مرحلة النكوص والتراجع التي عاشتها تركيا منذ نهاية الحرب العالمية الأولى إلى منتصف القرن العشرين، في ظاهرة لم يعرف بلد عربيّ إسلاميّ مثيلاً لها على الإطلاق. والغريب أن المؤلف محمد فتح الله كولن لم يلتق بسعيد النورسي، ولكنه قرأ "رسائل

^(١١٥) النور الخالد: محمد ﷺ مفخرة الإنسانية، فتح الله كولن، دار النيل، القاهرة ٢٠٠٦.

^(١١٦) أضواء قرآنية في سماء الوجدان، فتح الله كولن، دار النيل، القاهرة ٢٠١٠.

النور" بتعمق وتأمل وتمعن وتبصر وتدبر وتفكر، فنذر حياته ليرجم رسائل سعيد النورسي إلى الواقع المعيش، وإلى ممارسات ومبادرات وسلوكيات، وإلى منهج تجديدٍ في الحياة التركية أصفه دائماً بأنه فريد من نوعه على سعيد العالم الإسلامي كله بدون منازع.

يرسم المؤلف في هذا الكتاب المثير للتأمل، طريق ارتقاء القلب الإنساني في معارج المعرفة الإلهية التي هي أرقى معارف الإنسان قاطبة، وكل معرفة دونها هي مدينة لها، وظل من ظلالها، وأثر من آثارها. وقد استعان المؤلف في رسم معالم هذه الطريق بتجاربه الذاتية، وبتجارب جمهرة من فضلاء من سلك هذه الطريق نفسها من عظماء العارفين بالله الملتزمين بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ. ولقد وفق الأستاذ أديب إبراهيم الدباغ في تلخيص الكتاب واستخراج زبدته في تقديمه الرائع الشيق. كما وفق المترجم الأستاذ إحسان قاسم الصالحي، في ترجمة الكتاب إلى لغة عربية جميلة آسرة استوعبت أدق المعاني وأرق الرؤى وأعظم التأملات وأطيب النفحات وأزكى الفتوحات التي فاضت بها روح المؤلف. وليس ذلك بغريب على المترجم البارِع المتقن لعمله الأستاذ إحسان قاسم الصالحي، فهو الذي قدم للقارئ العربي "كليات رسائل النور" لسعيد النورسي في عشرة مجلدات ضخمة. وإليه يعود الفضل في تعريف القراء العرب بديع الزمان سعيد النورسي الذي كان نسيج وحده وآية من آيات الله في القرن العشرين. والقارئ لهذا الكتاب يشعر كما لو أنه يحلّق في سماء النورسي، ويرتشف من ينابيعه التي تطفئ الظمأ وتشفى الغليل؛ فمؤلف "التلال الزمرّدية" ينتقل بالقارئ عبر ستة وأربعين فصلاً، من مقام إلى آخر، يبدأ بالغوص في معاني التصوف الذي يخصص له ثلاثة فصول،

ثم ينتقل إلى التوبة والإنابة والأوبة في فصل قائم الذات، ثم يعبر بالقارئ إلى المقامات التالية: المحاسبة، التفكير، الفرار والاعتصام، الخلوة والعزلة، الحال والمقام، القلب، الحزن، الخوف والخشية، الرجاء، الزهد، التقوى، الورع، قبل أن يصل إلى العبادة والعبودية والعبودة التي يجمعها في فصل واحد. ومن هنا يبدأ في الكلام الدقيق العميق عن المراقبة، والإخلاص، والاستقامة، ويجمع في فصل واحد بين التوكل والتسليم والتفويض والثقة، ثم يأتي مقام الخلق، يليه مقامات التواضع، والفتوة، والصدق، والحياء، والشكر، والصبر، والرضا، والانبساط، والقصد والعزم (في فصل واحد)، والإرادة والمريد والمراد (في فصل واحد)، واليقين، والذكر، والإحسان، والبصيرة والفراصة (في فصل واحد)، والسكينة والطمأنينة أو الاطمئنان (في فصل واحد)، والقرب والبعد (في فصل واحد)، والمعرفة، والمحبة، والعشق، والشوق والاشتياق (في فصل واحد)، والجذبة والانجذاب (في فصل واحد)، والدهشة والحيرة (في فصل واحد)، والقبض والبسط (في فصل واحد)، ويجمع في آخر الفصول بين الفقر والغنى.

في فصل التوبة والإنابة والأوبة، يقول المؤلف إن "التوبة هي تجديد الإنسان لنفسه باستمرار، أو رجوعه إلى صفاته الأصلي وانسجامة مع فطرته الذاتية، بعد تعرضه لشوهات طبعية وداخلية، تحتوي كل مرتبة من مراتبها على أمثال الأمور الآتية:

١- الندم من أعماق القلب،

٢- تذكر الأخطاء السابقة بارتعاش ورعدة،

٣- إزالة المظالم ونصرة الحق،

٤- إيفاء الواجبات والتكاليف الفائتة حقّها وإمعان النظر مجدداً في المسؤوليات،

٥- ملء الخواء الذي أحدثته الأخطاء والزلات في الروح، بالعبادة والطاعات واغتنام التضرعات في جوف الليالي،

٦- بالنسبة للخواصّ وأخصّ الخواص؛ التحسر والبكاء على الحياة التي تمضي دون ذكر وفكر وشكر، والتأوّه والأنين وجلاً مما يمكن أن يتسرب بقصدٍ شيءٍ مما سواه تعالى في الشعور والفكر^(١١٧)، ويقول في هذا السياق في عبارات عميقة منعشة للروح منيرة للعقل: "إن الذي لا يئنّ ولا يتوجّع من الخطأ مهما كان مستواه في أثناء التوبة، ولا يرتعش نادماً من عثرات يمكن أن تحدث، ولا يشعر باشمئزاز ولا يتملّكه الازدراء نحوها، ولا يرتعد من احتمال وقوعه تحت خط الاستقامة مرة أخرى -رغم كل شيء- نتيجة بعده عن الله سبحانه، ولا يحاول التخلص مما وقع فيه من أخطاء وزلات في عبوديته لله وتخلقه بالعبودية.. إنه يكون كاذباً في توبته"^(١١٨).

ويقسم المؤلف الصوفيّين إلى مجموعتين رئيسيتين، الأولى "المنطلقون في مدار العلم بحثاً عن الوصال بأجنحة المعرفة"؛ والأخرى "السالكون لتحزّي الذوق والوجد والكشف فحسب". ويشرح قائلاً: "المجموعة الأولى، وهم الذين يحلّقون في الذرى بـ"لا حول ولا قوة إلا بالله"، فيقضون حياتهم بأجنحة العلم والمعرفة في سفر لا نهاية له، في آفاق "السير إلى الله"، و"السير في الله"، و"السير عن الله". فكل ما يشاهدونه من تبدل وتغيّر وتكوّن في الوجود، يقدم لهم مئات من الرسائل من القدرة

^(١١٧) التلال الزمردية-١، ص: ٣٤.

^(١١٨) التلال الزمردية-١، ص: ٣٤.

والإرادة الإلهيتين، وكل حادثة تهمس لهم بنعمات مختلفة بالسنة متباينة. أما المجموعة الثانية، فهم الباحثون عن الكشف والكرامة والذوق والوجد والتواجد. لذا يمكن أن يعيشوا "البعد" في إقليم "القرب"، لذهولهم أحياناً عن الهدف، رغم أنهم جادّون في سيرهم وسلوكهم وزهدهم^(١١٩).

وبفصل المؤلف المفكر المتعمق كلامه بدقة أكثر، فيقول: "إن الطريق الأول، هو طريق أصحاب الولاية الكبرى السائرين في ظل ريادة القرآن الكريم؛ أما الطريق الثاني تتقدم فيه أحياناً الرغبات والمشاعر والترقبات، رغم أن مداره في الأساس القرآن الكريم والسنة النبوية. لهذا فهو طريق أقلّ أماناً من الأول"^(١٢٠).

وفي مقام المحاسبة الذي هو من أجلّ المقامات ومن أصعبها أيضاً، يقول المؤلف في عبارات دالة: "المحاسبة كالقنديل في عالم المؤمن الداخلي، وكالناصح الأمين في وجدانه، يميز بها الخير عن الشر والحسن عن القبح، وما يحبه الله عما لا يحبه. وبريادة ذلك الناصح الخير وإرشاده، يقتحم ما لا يقتحم من عقبات ويبلغ هدفه دون مبالاة بالعوائق"^(١٢١). ثم يزيد في التدقيق (والترقيق أيضاً) فيقول عن المحاسبة: "إنها في مواضع الإيمان والعبودية والتوفيق والقربية ونيل السعادة الأبدية تدور بمحض العناية الإلهية والرحمة الإلهية، وهي الخصم اللدود للأمان التام مثلما هي لليأس. إنها مفتوحة كلياً على السكينة والاطمئنان، كما تتمحور على الخوف والقلق والاضطراب. ففي ربوع القلوب المخضلة بالخشوع،

^(١١٩) التلال الزمردية-١، ص: ٢٩.

^(١٢٠) التلال الزمردية-١، ص: ٢٩-٣٠.

^(١٢١) التلال الزمردية-١، ص: ٤٠.

المتفتحة للمحاسبة، ترجع دائماً صدى أنين "لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً" (متفق عليه)، وفي إقليمها حيث تعيش الطمأنينة والمهابة مندمجة، تدوي انكسارات الأفاذ الذين أفضت المسؤولية ظهورهم بـ "لوددتُ أني كنتُ شجرة تعضد" (رواه الترمذي)، وهم يشعرون كل آن كأن قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا صَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَصَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ﴾ (التوبة: ١١٨). ففي كل جزء من أجزاء دفاعهم يرن ﴿وإِنْ تُبَدُّوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخَفُّوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ﴾ (البقرة: ٢٨٤)، وتنطلق ألسنتهم بصراخ "يا ليتني لم تلدني أُمي" (١٢٢).

ثم يخلص المؤلف إلى القول الفصل في هذا المقام، بأن المحاسبة بهذا القياس أمر صعب عسير. ولكن الذي لا يحاسب نفسه بهذا المستوى لا يمكن أن يستثمر الزمان، فلا يتميز يومه عن أمسه ولا غده عن يومه. فمن يهدر الزمان فلن يبدى فعالية وكفاءة أخروية ألبتة. (١٢٣)

إن الأستاذ محمد فتح الله كولن يعلمنا -في هذا الكتاب- كيف نشحن النفس بقوى الإيمان وطاقاته في مواجهة محن الزمان، وهو يريد من المسلم أن يكون عظيم النفس، هائلاً في عظمتها، مهيباً في سموه، خارقاً في قوة روحه، وأن يظل تعطشه إلى الحياة متأججاً في قلبه، وإذا ما خانته نفسه رجع إلى الله متضرعاً. والمؤلف يجمع في كتابه بين العشق والإشراق والعرفان والتصوف القائم على القرآن والسنة، وبين الشعر والفلسفة وعلوم شتى في براعة آسرة.

(١٢٢) التلال الزمردية-١، ص: ٤٠-٤١.

(١٢٣) انظر: التلال الزمردية-١، ص: ٤١.



نفحات روحية تهب من تلال تركية:

في مقامات الإخلاص والصبر والرضا والمحبة^(١٢٤)

مؤلف كتاب "التلال الزمردية" الأستاذ محمد فتح الله كولن، الذي نواصل رحلتنا الروحية معه، "قرأ لعمالقة التصوف الكبار، من عرب وفرنس وترك، وكان له من وجدانه الشعري، وحسّه المرفه، خير مَعُون على ذلك، فشرب من الكأس نفسها التي شربوا منها، وخاض البحار نفسها التي خاضوها، وعانى ما عانوا، وَوَجَدَ مثل وجدهم، واتَّقَدْتُ شمعةً المحبّة في قلبه كما اتَّقَدْتُ في قلوبهم، وسكب الغزير من الدموع كما سكبوا، فَأَنَّ وحنَّ، وفاض وَجْدُهُ، والتَّهَبَ شوقه، وعلا نَشِيجُهُ، واحترق قلبه، إلَّا أَنَّهُ ظل مُمسِكًا بمِيزان الشريعة لِيَفَرِّقَ بين مقبولها ومرفوضها"^(١٢٥).

هكذا يقدم الأستاذ أديب إبراهيم الدباغ، مؤلف هذا الكتاب القيم إلى القارئ العربي، بهذه العبارات المؤثرة المبللة بندى الحب والمضمخة بعطر الشوق وبطيب الوجد الصوفي، ناقلًا عن المؤلف قوله الفصل الذي يحدد معالم الطريق إلى الله على هدي القرآن والسنة: "ففي أمثال هذه المواقف، فالحذر واليقظة وموازن السنة النبوية هي الأساس. أما

^(١٢٤) جريدة "العَلَم" المغربية، ٧ سبتمبر ٢٠١٠.

^(١٢٥) التلال الزمردية: نحو حياة القلب والروح-١، فتح الله كولن، دار النيل، القاهرة ٢٠١٠، ص: ٧ (تقديم الأستاذ أديب الدباغ).

رجال الحق الذين غلب عليهم الحال وهم مخمورون بحفظ المشاهدة، فقد يتلفظون بأمور مخالفة لهذه الحقيقة. ففي أمثال هذه المواقف، ينبغي البحث بإنصاف عن نياتهم وعدم الاستعجال في إصدار الحكم عليهم" (١٢٦).

ويتبدى لنا هذا المسلك في شرح المؤلف لمقام الإخلاص، فيقول: "الإخلاص وثيقة اعتماد يمنحها الله القلوب الطاهرة، فهي وثيقة سحرية تجعل القليل كثيرًا، والضحل عميقًا، والعبادات والطاعات المحدودة غير محدودة، حتى يستطيع الإنسان بوساطتها أن يطلب أعلى ما في سوق الدنيا والآخرة، ويتمكن بفضلها أن يقابل بالاحترام والتوقير رغم كثرة الطالبين" (١٢٧). وينقل محمد فتح الله كولن كلامًا جميلًا لأبي يزيد البسطامي يعمق الشرح الذي أتى به: "لقد بذلت ما بوسعي، فعبدت الله ثلاثين سنة، ثم سمعت هاتفاً يقول: «يا أبا يزيد، إن خزائن الله ملاءى بالعبادات، إن كنت تبغي الوصول إليه تعالى، استصغر نفسك في باب الحق، وكن مُخلصًا في عملك»، فانتبهت" (١٢٨).

ويتعمق المؤلف في شرح مقام الصدق، فيقول: "الصدق هو أن يصون الفرد تكامل عمله وسلوكه، وأن يقول الحق حتى في مواطن الهلكة، التي لا ينجيه إلا الكذب، لئلا يقع في مباينة السر والعلانية والظاهر والباطن. إن أدنى مراتب الصدق هو استواء السر والعلانية، والباطن والظاهر في الأحوال كلها، تليها مرتبة الصدق في الشعور والتفكير

(١٢٦) التلألؤ الزمرديّة-١، ص: ٢٣١.

(١٢٧) التلألؤ الزمرديّة-١، ص: ١١٤.

(١٢٨) التلألؤ الزمرديّة-١، ص: ١١٥.

والتصور والنيات" (١٢٩). ويستطرد قائلاً: "الدعوات والتوسلات إنما تقبل وتستجاب بقدر أدائها بالصدق. حيث تبلغ عرش الرحمة كأنها مقترنة بالاسم الأعظم. نعم، الصدق يؤثّر كتأثير إكسير الاسم الأعظم" (١٣٠). ويختم هذا المقام بقوله: "إن أعظم الصدق هو الرضا بربوبية الله سبحانه وبدين الإسلام نظاماً إلهياً، وبسيد الأنام ﷺ مرشداً ورائداً. فالطريق إلى الإنسان الحق يمرّ من تحمّل هذه المسؤولية الثقيلة والعسيرة جداً" (١٣١). وينبغي أن نستحضر دائماً، ونحن نواصل الرحلة الروحية مع محمد فتح الله كولن، أن الرجل لا يكتب من برج عاج، وليس هو بدرويش منقطع عن الدنيا، وإنما هو صاحب دعوة وحركة ومشروع إصلاحى تجديدي له تأثيره الملموس داخل بلده تركيا وخارجه في أفطار شتى من العالم. لقد تعودنا أن نقرأ مثل هذا الكلام لرجال زهدوا في الدنيا، وانعزلوا في أماكن تنأى بهم عن المجتمع الذي ينتمون إليه. ولذلك فإننا مع المؤلف نعيش حالة مغايرة تماماً، فهذا الصوفي الشاعر المفكر، هو رجل إصلاح وتجديد في الفكر، وفي السلوك، وفي الشعور والتصور، وفي المعاملة والممارسة. وهنا السرّ الذي يجعل من الأستاذ محمد فتح الله كولن نسيج وحده - كما سبق أن قلت في مناسبات كثيرة - ويجعل حركته المجتمعية التجديدية، حركة فريدة من نوعها على صعيد العالم الإسلامي قاطبة، ويجعل من تلامذته ومحبيه، نماذج مشرقة فاعلة ومؤثرة في محيطها. في مقام الصبر يحلّق المؤلف في أجواء الإيمان واليقين والشوق إلى

(١٢٩) التلال الزمردية-١، ص: ١٤٦.

(١٣٠) التلال الزمردية-١، ص: ١٤٧.

(١٣١) التلال الزمردية-١، ص: ١٥٠.

الله تعالى. فيقول:

"لقد بحث الصبر ضمن ستة أقسام من حيث كيفيته وتحققه:

- ١- الصبر لله، لأجله تعالى، وهو أولى مراتب الصبر،
- ٢- الصبر بالله، أي العلم بأنه تعالى هو المصبر (بكسر الباء المشددة)، وهو أسبق بخطوة من الأولى،
- ٣- الصبر على الله، بعدم الاستعجال تجاه التجليات الجمالية والجلالية للحق تعالى، قائلاً: "الله في كل شيء أسرار وحكم"،
- ٤- الصبر في الله، أي استواء القهر واللفظ في الطريق إلى الله (لا يفرق بين حال النعم والمحنة). لهذا الصبر ميزة خاصة، ويسبق الأقسام الأخرى،

- ٥- الصبر مع الله، أي البقاء معه تعالى مع مراعاة أسرار المقام الذي هو فيه من حيث خصوصية المعية والقرب،
- ٦- الصبر عن الله، وهو صبر عشاق الحقيقة، الذين عزموا على التحمل عن الوصال وهم بين الخلق" (١٣٢).

أما "الرضا، فهو عدم اهتزاز قلب الإنسان للبلات التي تصيبه، ومقابلة تجليات القدر بارتياح ضمير.. وبتعبير آخر، بقاء جهاز الفؤاد والوجدان في سكون واطمئنان مما يتألم منه الآخرون ويمتعضون منه" (١٣٣). والرضا، إلى ذلك كله، هو "ارتياح القلب واطمئنان النفس بقضاء الله وتقديره ومعاملاته بتحمل آلامها وشدائدها وغموضها حسب تقلبات

(١٣٢) التلال الزمردية-١، ص: ١٦٥-١٦٦.

(١٣٣) التلال الزمردية-١، ص: ١٧١.

نفوسنا"^(١٣٤). يقول محمد محمد فتح الله كولن في هذا المقام: "وإذا أخذنا الأمر من زاوية الأسباب، فالبلوغ إلى مرتبة الرضا يتطلب الجد في معاملات العبد مع ربّه ﷺ، وأخذ النعم التي تغدق عليه من دون طلب وسائل شكر وتحدثاً بالنعمة، والتعالي على أنواع الحرمان برحابة صدر، وأداء حق مسؤولياته بانسراح تام حتى لو كان يتقلب تحت قبضة الاستيحاء والانفراد والانقباضات، وقبول أوامر الحق سبحانه ونواهيهِ بسرور وحبور، كأنها دعوة إلى "ليلة زفاف"... وأمثالها من الأسس. إلا أن أهم ركن للرضا من حيث المبدأ، هو توجه الفرد إلى الله في قيامه وقعوده بشعوره وفكره وسلوكه، والانتباه له والانسراح به، وإنشاؤه وسائل متجددة كل يوم للوصول إلى معرفة أعمق للألوهية"^(١٣٥).

ويبلغ المؤلف درجة عالية من الشفافية في شرحه لمقام الرضا، حيث يقسم هذا المقام إلى "خمسة أقسام:

- ١- عدم الانزعاج من أي حكم وتقدير مصدره الألوهية والربوبية،
- ٢- تلقى كل ما يرِد من الله بانسراحٍ وسرور،
- ٣- الارتياح إلى رِياح القَدَر أينما هبّت،
- ٤- المحافظة على ضبط موازنة القلب وتوازنه حتى تجاه أفجع الحوادث وأشدّها،

٥- عدم التوجع من المصائب متفكراً بتقدير الله في لوح الحقيقة المحفوظ"^(١٣٦).

^(١٣٤) التلال الزمردية-١، ص: ١٧١.

^(١٣٥) التلال الزمردية-١، ص: ١٧٣-١٧٤.

^(١٣٦) التلال الزمردية-١، ص: ١٧٦.

والمقصود هنا التفكير في تقدير الله، وليس "بتقدير الله" حسب التعبير الذي استخدمه المترجم الأستاذ إحسان قاسم الصالحي. والتدقيق هنا ضروري حتى يستقيم المعنى، لأن التفكير يكون "بالعقل" في أمر من الأمور. ولقد وجدته أربط الصلة بين كلام المؤلف في هذا المقام، وبين حياته الحافلة بالعمل المخلص المتقن المحكم الدؤوب، من أجل خدمة المجتمع والنهوض به على أساس من الأخلاق والقيم والقواعد الإسلامية، ودونما تَزَمَّتْ أو تشدد، أو تهور أو اندفاع أو تنقطع. فحياة الأستاذ محمد فتح الله كولن، صورة لمقام الصبر، ولمقام الرضا، والحركة التجديدية الإصلاحية الإنمائية التي يديرها بحكمته المشهود له بها، نموذج للعمل الجاد الهادف إلى الارتقاء بالإنسان وبالمجتمع وبالبينة على جميع المستويات.

من المقامات الرفيعة التي يعرض لها المؤلف في هذا الكتاب، مقام "الانبساط، وهو التوسع، والانتشار، والتعمق في الداخل، واستعلاء المرء على طبائعه، وانفتاح القلب للجميع، وإرضائهم، بطيب اللسان وطلاقة الوجه، ضمن إطار الحدود الشرعية. أما من حيث العلاقة مع الله سبحانه، هو هيمنة حالة من مزيج الخوف والرجاء على ذات الإنسان بحيث إن ذوي القلوب الواصلة إلى هذا المستوى، يكتمون أنفاسهم في هيئة الحضور، ثم يطلقونها بنشوة نسائم الحضور وبهجة سروره، فكَلَّمَا شَهِقُوا اقشَعَرُوا، وكلما زَفَرُوا انشَرَحُوا"^(١٣٧)، حسب التعبير الذي استخدمه المؤلف. "والانبساط ضمن ارتباطنا به سبحانه، هو استنشاق

(١٣٧) التلال الزمردية-١، ص: ١٨٥.

هبات نسائم الانبساط، والعيش بالخوف والرجاء معا في الروح، بحال يفوق الأحوال. فالخوف والرجاء اللذان هما من أحوال النفس، عنوانان على علاقة المبتدئين بالله في ارتباطهم به سبحانه. أما الانبساط الذي هو حال العارفين حقاً، فهو بُعد آخر لحياة القلب وحال خاصة بأرباب القلوب" (١٣٨).

ويغرق المؤلف في بحر المحبة من دون أن يفقد طوق النجاة، وهو هنا القرآن والسنة. فيقول في إحدى تجلياته المنعشة للروح المنيرة للبصيرة: "المحبة الحقيقية إنما تتحقق بتوجه الإنسان بكيانه لله إلى المحبوب سبحانه والبقاء معه، وإدراكه له وانسلاخه من جميع الرغبات الأخرى ومن جميع الطلبات، بحيث إن قلب البطل الذي ظفر بهذه الخطوة، ينبض كل آن بملاحظة جديدة تخصّ الحبيب.. وخياله يجول في إقليمه الساحر.. ومشاعره تتلقى كل لحظة رسائل متنوعة منه.. وإرادته تحلق بهذه الرسائل.. وفؤاده يسرح في متنزهات الوصال..." (١٣٩).

و"المحبة الحقيقية ليست على مستوى واحد لدى الجميع من حيث تعلقها بالمحبوب، فهناك:

١- محبة العوام، وهي محبة تتردد بين الهبوط والصعود.. فهؤلاء يرون رؤى الإحسان تحت ظل الحقيقة الأحمديّة، ويشاهدون علامات تخص بزوغ فجر المعرفة.

٢- محبة الخواص، فهم كالعُقبان المحلّقة في أجواء عالم المحبة، يثرون عمرهم دوماً بالعمق والخصب بامثال الأخلاق المحمدية في عالم

(١٣٨) التلال الزمردية-١، ص: ١٨٦.

(١٣٩) التلال الزمردية-١، ص: ٢٢٨.

القرآن المنور، من دون أن يطلبوا عوضاً مادياً كان أو معنوياً.

٣- محبة خواص الخواص، فهم كالغيوم المحملة بالأمطار في السماء المحمدي، بهذه المحبة يستشعرون الوجود، وبها يحيون، وبها يبصرون، وبها يتنفسون^(١٤٠).

هكذا "تجد الفئة الأولى في بابه سبحانه، الرحمة والعناية الخاصة بها، بحلم؛ وتصل الفئة الثانية إلى أفق إدراك الصفات الجلالية والجمالية، وتنجو من الثغرات البشرية وظلماتها؛ بينما الفئة الثالثة تتنور بنور وجوده سبحانه، وتتبه إلى حقيقة الأشياء، وتربط علاقات مع ما وراء الأستار"^(١٤١). بهذا العمق والشفافية يكتب عن المحبة التي يختزلها في العبارات التالية: "إذا نُسبت المحبةُ إلى الحق سبحانه فهي إحسان، وإذا أُسندت إلى الخلق فهي خضوع وطاعة وانقياد"^(١٤٢).

وإن مما يزيدنا تقديرًا لهذا المؤلف الملهَم أنه لا يكتب من صومعة منعزلاً عن تيار الحياة المتدفق، وإنما يكتب للناس الذين يحبّونه، ويشقون به، ويعملون معه من أجل تطبيق هذه القيم والمبادئ والأفكار في الواقع المعيش. وتلك إحدى تجليات الأستاذ محمد فتح الله كولن الذي وصفته في مقال سابق، بأنه "الرجل الظاهرة"، أو "الرجل المؤسسة"، أو "الرجل القدوة" في زمن عزّت فيه القدوة.



^(١٤٠) التلال الزمردية-١، ص: ٢٣٠.

^(١٤١) التلال الزمردية-١، ص: ٢٣١.

^(١٤٢) التلال الزمردية-١، ص: ٢٢٩.



ما حقيقة حركة محمد فتح الله كولن؟ ^(١٤٣)

يتصدّر اسم "محمد فتح الله كولن" عناوين الأخبار في الصحافة العالمية عن الأحداث الجارية في تركيا. ويأتي اسمه مقروناً باسم "رجب طيب أردوغان" رئيس الوزراء ورئيس حزب العدالة والتنمية. فمن هو محمد فتح الله كولن؟ هل يقود حركة عابرة للقارات كما تصفه الصحافة؟ وهل هو زعيم سياسي، أم هو مفكر إسلامي وعالم دين وداعية مصلح يعمل لنشر الإسلام ولتصحيح العقيدة ولتمكين للثقافة الإسلامية؟ وهل حركة محمد فتح الله كولن حركة إسلامية تربوية ثقافية اجتماعية إصلاحية، أم هي حركة سياسية تسعى إلى الحكم في تركيا؟ هل محمد فتح الله كولن يظهر للناس على حقيقته، أم أنه يتظاهر بغير حقيقته؟ هل هو قائد تيار عريض له أنصاره الذين يعدّون بالملايين وله أهداف يعمل على تحقيقها، ويسعى إلى جذب الأنصار لدعمها والتمكين لها، أم هو قطب صوفي غامض - كما يصفه بعضهم - ينتمي إلى إسلام صوفي غير واضح المعالم؟

تلك هي الأسئلة التي تتردد في الإعلام الغربي بصورة عامة، كما تتردد بأساليب مختلفة في الإعلام العربي ومن زوايا متعددة، وغالباً ما يتم ذلك

^(١٤٣) جريدة "العلم" المغربية، ١٠ يناير ٢٠١٤.

بدون فهم حقيقي لما يجري في تركيا من أحداث يبدو أنها لن تهدأ في المدى القريب.

محمد فتح الله كولن (بالكاف وليس بالغين، ومعناها البسام، الضحاك) شخصية فريدة من نوعها، حقيقة لا مجازاً. لا يوجد له نظير في العالم العربي بل في العالم الإسلامي منذ القرن التاسع عشر وحتى اليوم. هو نمط فريد من بين المفكرين الذين يؤمنون بالقيم الإسلامية ويسعون إلى تفعيلها في المجتمع. ولا أحب أن أستخدم تعبير "المفكرين الإسلاميين"، فهو مفكر ذو رؤية إسلامية وصاحب رسالة إنسانية، عرف دينه وعصره وحاجة مجتمعه إليه، فانطلق يعمل في بيئة لم تكن مواتية، ولكنه وُفق -بذكائه وفطنته وبصدقه وبتفانيه- في تذليل الصعاب، وفي إقناع الناس المحيطين به بأفكاره البناءة، وفي شقّ طريقه نحو الأمام.

لقد نشأ محمد فتح الله كولن في بيئة كان الدين فيها محاصراً من الدولة ومن المجتمع المثقف، أو لنقل من النخب الفكرية والثقافية والأكاديمية والإعلامية.. وكان العمل في تلك المرحلة -من أجل نشر الرسالة الإسلامية في وسط الجمهور الواسع- جريمة يعاقب عليها القانون. تلقى تعليمه في حضان أمّه التي كانت على دراية بالعلوم الدينية، قبل أن يختلف إلى إحدى المدارس الدينية ليتلقى علومه على الشيوخ الأتراك، وليظهر نبوغه المبكر في حفظ القرآن الكريم، وفي دراسة اللغتين العربية والفارسية، فضلاً عن اللغة التركية لغة الوطن. وكانت الفارسية إلى ذلك العهد، لغة الفكر والأدب والشعر والثقافة العامة. فلفت إليه الأنظار في صباه المبكر وفي يفاعته وفي شبابه الغض. ولما التحق بسلك الوعاظ الدينيين الموظفين في الدولة، كان مثلاً للإمام التقي والمربي الذكي والناصح

الأمين والداعية الفطن الذي يعرف ماذا يقول وكيف ومتى يدعو إلى الله. كان يتطلع إلى إصلاح المحيط الذي يعيش فيه من خلال وسائل التربية والتعليم.. وساعده في ذلك نفر ممن كانوا يثقون في إخلاصه وصدقه من مختلف الفئات. فنشأت الحركة البانية للمجتمع، المنقذة من الجهل، الهادية إلى الإيمان، الداعية إلى الفضيلة، الحاثّة على الإخلاص في العمل لمصلحة المجتمع. نشأت هذه الحركة بوسائل بسيطة وبإمكانات متواضعة. وعرفت هذه الحركة بـ"الخدمة". يقول مصطفى يَشِيل (رئيس وُقْف الصحافيين والكتاب في تركيا): "الخدمة مشروع مدني، تضع الإنسان في محور نشاطها، وتستهدف خدمة الإنسان، ولا تبتغي من وراء ذلك إلا مرضاة الله تعالى. وهي تؤمن بالتنوع والتعدد الثقافي، ولا تنظر إلى الاختلاف الثقافي والديني على أنه مثار صراع وصدام.. كما تعتمد على الروح التطوعية في كل أنشطتها.. فهي أحد أركان المجتمع المدني في تركيا والعالم أجمع. وأودّ أن أؤكد أن "الخدمة" لم يكن لها أيّ هدف سياسي أبداً، ولم تضع في برنامجها حتى اليوم خطة لتأسيس حزب سياسي والصعود إلى السلطة، وهي تقف على مسافة واحدة من الأحزاب السياسية كافة دون تفضيل أحد على آخر" (١٤٤).

ويضيف شارحاً طبيعة هذه الحركة: "كما أن "الخدمة" لا تنحاز إلى أي حزب من الأحزاب السياسية بصورة جماعية، كذلك لا توجه أي فرد من أفرادها إلى حزب بعينه، ولا يقدم لأحد أي اقتراح أو توجيه في هذا الصدد. ذلك أن الذين ملؤوا قلوبهم بحبّ هذه الخدمة، قد تكون لديهم

ميول ونزوع إلى أحزاب مختلفة. ولَبَّ القول إن الخدمة تركت موضوع التصويت في الانتخابات لإرادة المنتخبين الحرة^(١٤٥).

إن الأسلوب أو المبدأ الذي تتبناه "الخدمة" وتتبعه في تعاملها مع المجموعات البشرية والقضايا الإنسانية، طوال حوالي ٦٠ عامًا من ظهورها إلى العلن، هو التزام العمل الإيجابي البناء بعيداً كل البعد عن جميع أنواع العنف والشدة، والتحرك في إطار الحقوق والقوانين. ولم تقف "الخدمة" في يوم من الأيام إلى جانب الصراع، بل آمنت بإمكانية حل القضايا والمشاكل كافة - في أي مجال أو بقعة كانت - عن طريق الحوار والتصالح والاتفاق. فذلك هو المنظور والفكرة والأسلوب الذي بنت عليه "الخدمة" مسيرتها وحركاتها وسكناتها، كما يقول رئيس وقُف الصحفيين والكتاب في تركيا الذي يضيف موضعاً البعد الخارجي لحركة محمد فتح الله كولن: "الخدمة باعتبارها حركة مدنية، تعقد علاقات مع كافة البلدان على طول العالم وعرضه على الصعيد المدني، وتنظم مختلف البرامج مع المجتمعات الفكرية والمؤسسات المعنية بالنشاطات التعليمية، وكذلك تقوم بتطوير العديد من المشاريع الثقافية مع شتى المنظمات المدنية. ومن الطبيعي أن تكون أمريكا من بين هذه البلدان شأن البلدان الأخرى في شرق العالم وغربه"^(١٤٦).

ولم تكن "الخدمة" - يقول مصطفى يَشِيل - في يوم من الأيام تابعة لإرادة أي بلد في الخارج، كذلك هي لا تتبع لإرادة أي مؤسسة أو منظمة في الداخل.. فهي حركة مستقلة لا تخضع لإرادة وسيطرة أي

^(١٤٥) وكالة "جهان" للأخبار، ٣١ ديسمبر ٢٠١٣.

^(١٤٦) وكالة "جهان" للأخبار، ٣١ ديسمبر ٢٠١٣.

دولة أخرى في العالم. هي تتميز باستقلاليتها التامة من كل النواحي، من حيث مواردها ومنهجها في الفكر والعمل ومسيرتها في هذا الدرب، ومن حيث برامجها ومشاريعها المختلفة. وتلك الاستقلالية الشاملة هي أهم ميزة تتميز بها الخدمة.

ويتبادر إلى الذهن سؤال لا أتردد في طرحه؛ "هل يسير محمد فتح الله كولن على النهج الذي رسمه بديع الزمان النورسي؟". وجاهة السؤال تأتي من طبيعة المدرسة الفكرية التي أسسها النورسي والتي تقوم على أساس النأي عن السياسة وعدم الخوض في الشؤون السياسية من قريب أو بعيد. وهو الأمر الذي قد يبدو متعارضاً مع الحركة التي أسسها محمد فتح الله كولن الذي يعدّ أحد النبغاء من تلاميذ رسائل النور التي كتبها النورسي وبث فيها أفكاره وتأملاته وتوجيهاته ونظراته في الإنسان وفي الحياة وفي المجتمع. والواقع أن حركة "الخدمة" -التسمية جاءت من خدمة القرآن والإيمان لا تقطع صلتها بالمجتمع، لأنها في النهاية حركة اجتماعية تخدم أهدافاً تنموية تربوية بالمفهوم الشامل. فهل يمكن اعتبار الاهتمام بمثل هذه القضايا ضرباً من السياسة البانية للإنسان وللأوطان وليست السياسة الهادمة للكيان ولل فكر والوجدان؟!

لنتابع التصريحات التي أدلى بها رئيس وقف الصحافيين والكتاب في تركيا (والذي هو الأستاذ فتح الله رئيس شرف له). يقول في معرض حديثه عن العلاقة بين حركة "الخدمة" وحزب العدالة والتنمية، وهي القضية المثارة حالياً في وسائل الإعلام: "حركة "الخدمة" لم تجمعها في أي وقت من الأوقات "مصلحة مادية" بحزب العدالة والتنمية"، وخلال الفترات التي ساروا فيها معاً في طريق واحد. أي إن هذه العلاقة ليست

لها صلة مثلاً بمناقصات تجارية أو أي شيء من هذا القبيل، كما أنه من الخطأ الحديث عن منفعة مشتركة بين الجانبين. وليس لحركة "الخدمة" أي حسابات أو أهداف تتعلق بنصيب لها من السلطة. إن كل ما تنتظره "الخدمة" من الحكومة أي حكومة هو الارتقاء بالبلد، وترسيخ قواعد الديمقراطية ودعائهما، وتحقيق النهضة والاستقرار للشعب، وزيادة حقوق المواطنين وحرياتهم. وقد حصل حزب العدالة والتنمية على دعم القاعدة العريضة من محبي "الخدمة" حينما سعى لتحقيق مطالب الشعب. ولكن في الوقت الذي حدث فيه انخفاض في تحقيق نسبة هذه المطالب، وفرض قيوداً على حقوق المواطنين وحرياتهم، وتحولت الحكومة من مؤسسة تحتضن الجميع إلى مؤسسة تنظر إلى كل شيء من وجهة نظرها الضيقة وتقصي من حولها؛ شهدنا جميعاً كيف أن هذه التطورات أفضت إلى نشوب مشاكل كبيرة في فترات معلومة".

عدتُ إلى كتاب "المثنوي العربي النوري" لسعيد النورسي هذه الأيام، لأعيد قراءة المقدمة الضافية التي كتبها محمد فتح الله كولن للطبعة الجديدة. فوجدته يقول: "دعا بديع الزمان إلى القراءة والتفكير، وإلى السعي والحركة لينقذ أفراد الأمة من ضنك العزلة، وليشكل مجتمعاً سليماً معافى، وأمة متينة البنية، وأكد على التعليم الذي رآه ضرورة قصوى لرفع الوطن والإنسان إلى الذروة التي أشار إليها؛ فدعا إلى نشر المعارف بكل أشكالها في كل مكان، وإلى نشر التعليم والتربية، إذ كان يرى اشتراك المساجد والمدارس الدينية ومعسكرات الجنود والسجون وكافة مرافق المجتمع في تعبئة عامة للتعليم.. فبالمعارف وحدها يمكن تحقيق الوحدة العقلية والفكرية، إذ كان يرى أن العقول إن لم تتآلف مع

بعضها فلا يمكنها أن تقطع معاً شوطاً كبيراً في الطريق. ويجب أن تتحد الضمائر والمشاعر أولاً لكي تتحد القلوب والأيدي فيما بعد. والطريق إلى مثل هذه الوحدة يكون بتناول الحياة حسب مبادئ الدين وقيمه، وحسب الكتاب والسنة وطريق السلف الصالح واجتهادهم، على أن تفسر الأمور الجديدة والمستحدثة حسب إدراك العصر وضروراته^(١٤٧). ذلك هو النهج الذي اتبعه محمد فتح الله كولن وسار معه فيه أنصاره والمتعاطفون المؤيدون في داخل تركيا وخارجها. إن قراءة هذا النص من المقدمة، الذي يُجيب عن الأسئلة التي افتتحتُ بها المقال، يجعلنا نقف على حقيقة حركة محمد فتح الله كولن.



^(١٤٧) المثنوي العربي النوري، سعيد النورسي، دار النيل، القاهرة ٢٠٠٩، ص: ١٢ (تقديم الأستاذ فتح الله كولن).



فتح الله كولن يترجم أفكار سعيد النورسي

من خلال شبكة واسعة من التعليم الجيد (١٤٨)

أظهر تصنيف جامعات العالم لسنة ٢٠١٣-٢٠١٤ ما كان مستورا من أوضاع التعليم العالي في العالم العربي. فهذا التصنيف يضم سبعمائة (٧٠٠) جامعة، ويظهر أن أول ١٥٠ مركزا لا تضم أي جامعة عربية أو في دولة عربية. وقد احتلت جامعة الملك فهد للبترول والمعادن المركز ٢١٦. وضمن أول عشر جامعات، هناك أربع جامعات بريطانية. هذا التصنيف يدعو إلى وقفة طويلة أمام الأوضاع التي تعاني منها الجامعات في العالم العربي والتعليم العالي بصورة عامة.

إن ضعف التعليم العالي وفشله وفساده أيضا، هو تراكم للضعف العام والفشل التام والفساد المستشري في التعليم العمومي منذ مراحل الأولى. فتلک هي النتيجة التي انتهت إليها البحوث الميدانية التي قامت بها اليونيسكو والإيسيسكو، كل منهما في دوائره الجغرافية. فعلى سعيد العالم الإسلامي، تحتل دولتان (المغرب) من الدول الأعضاء في منظمة التعاون الإسلامي البالغ عددها سبعا وخمسين (٥٧) دولة، المركز المتقدم في تصنيف الجامعات، هما تركيا وماليزيا. وواضح أن التقدم في

هذا المضممار يعكس التقدم في المجالات الاقتصادية والاجتماعية كافة. كانت هذه النتيجة حاضرة في ذهني وأنا أזור بعضاً من المؤسسات التعليمية في تركيا. فقبل سنتين زرت جامعة الفاتح في إسطنبول التي تعد من أرقى الجامعات التركية، وطلابها يحرزون النتائج المتقدمة في الأولمبيات الطلابية العالمية في العلوم والرياضيات. وفي الأسبوع الماضي، زرت في مدينة قونية (في وسط تركيا) مؤسسة ثقافية فكرية تربية تحمل اسم "الأكاديمية القرآنية"، وهو اختصار للاسم الكامل "حسن حسين وارول الأكاديمية القرآنية". ولما سألتُ عنم يكون صاحب هذا الاسم، علمتُ أنه أحد خدام القرآن الكريم ممن عملوا في مجال تشجيع الدراسات القرآنية ونشر الثقافة القرآنية وخدمة كتاب الله. واختيار هذا الاسم لهذه الأكاديمية القرآنية هو من الأستاذ محمد فتح الله كولن، الراعي الحكيم لحركة تعليمية ثقافية اجتماعية إعلامية واسعة النطاق تعم المناطق التركية كافة، وتمتدّ إلى بلدان أجنبية كثيرة. ويقول الأستاذ كولن: "إن هذه المؤسسات من عند الله، ليست منّا. وربّنا استخدّمنا في إعلاء دينه".

ولقد شدّنتي الأكاديمية القرآنية هذه بما شاهدتُ فيها من تجهيزات حديثة وفصول دراسية منظمة وقاعات للمحاضرات والاجتماعات وغرف لسكن الطلاب والدارسين الوافدين من المدن التركية الأخرى، والمكتبة الحافلة التي قضيتُ وقتاً طويلاً في تفقدها، فدهشتُ لما تحتويه من ذخائر وأمّهات الكتب والمراجع والموسوعات ودوائر المعارف من التراث ومن الإنتاج الحديث والمعاصر. وجلست إلى بعض الطلاب مع مدير الأكاديمية وأحد أساتذتها الذي كان يتكلم معي بعربية جيّدة، وهو أحد

تلامذة الأستاذ محمد فتح الله كولن الذي أخذوا عنه مباشرة، وتشربوا أفكاره، ويعملون بتوجيهات منه على تنفيذها.. فغمرتني الروح الطيبة التي تسري فيهم وتقود خطاهم على طريق العلم والمعرفة والخدمة القرآنية، كما يعبرون ويحسنون التعبير.

والمدهش أن الأكاديمية القرآنية هذه لها فرع مماثل له في البناء والتجهيزات خاص بالفتيات. وهو الأمر الذي يؤكد أن هذه الحركة شاملة لجميع أفراد المجتمع التركي ذكوراً وإناثاً. ومما لفت نظري عند الخروج من الأكاديمية بعد أن صلينا المغرب، وجود لوحة كبيرة الحجم في إطار جميل معلقة عند المدخل سجلت فيها أسماء الأشخاص الذين تبرعوا لتشييد هذه الأكاديمية وتجهيزها. وجميع هؤلاء المتبرعين هم من خدام رسائل النور للأستاذ بديع الزمان سعيد النورسي؛ ذلك أن حركة محمد فتح الله كولن هي الترجمة العملية لرسائل النور. والغريب أن الرجلين اللذين أحدثا هذه الحركة في طوريتها النظري التأصيلي والعملي التنفيذي، لم يلتقيا، ولكنهما يلتقيان روحياً وفكرياً، ويتكاملان؛ فالأول هو الباني المؤسس لمدرسة رسائل النور الذي لم يكن يملك إلا كتابة رسائل النور وبثها في المجتمع ونشرها في الآفاق لإحياء الإيمان، بل لإنقاذ الإيمان الذي كان -ولأكثر من ربع قرن- مهدداً بالإلحاد في عهد غلوان الحركة الأتاتوركية وعنفها وشراستها؛ والثاني هو من تبنى أفكار الأول ونذر حياته لتنفيذها في الواقع المعيش انطلاقاً من نشر المعرفة الصحيحة والوعي الرشيد وبناء الإنسان من خلال إنشاء شبكة واسعة من المدارس، بدعم ممن وثقوا فيه، واطمأنوا إليه، والتفؤوا حوله، وشجعوه على المضى قدماً في طريق تنفيذ مشروعه الحضاري الرائد.

في طريقي إلى قُوْنِيَّة قرأتُ للأستاذ بديع الزمان سعيد النورسي قوله: "إن عدوَّنَا هو الجهل والفقر والاختلاف، وسنجاهد هؤلاء الأعداء الثلاثة بسلاح الصناعة والمعرفة والاتفاق"^(١٤٩). كما قرأت له ما يزيد هذا القول إيضاحًا: "كل مؤمن مكلف بإعلاء كلمة الله، وأعظم وسيلة لإعلاء كلمة الله في زماننا هذا، هو الرقي المادي، إذ الأجانب يسحقوننا تحت حكمهم المعنوي بسلاح العلوم والصنائع، ونحن سنجاهد بسلاح العلم والتقنية (التكنولوجيا) الجهل والفقر والخلاف الذي هو ألد أعداء إعلاء كلمة الله"^(١٥٠).

ولا بد أن نلاحظ أن صاحب هذا الكلام النفيس لم يكن زعيمًا، ولا قائد حركة، ولا مسؤولًا عن جماعة، ولا خائضًا في بحار السياسة. كان مفكرًا عبقريًا مبدعًا للأفكار الخلاقة صادق الإيمان، صادق الإخلاص لربه، صادق النية في إصلاح أحوال بلده وأوضاع المسلمين عمومًا، بالكلمة، وليس بأي شيء آخر. ولذلك كان تأثيره في بيته ومحيطه تأثيرًا قويًا نافذًا ممتدًا ضاربًا في الأعماق، وكانت أفكاره بمثابة برنامج عمل للمستقبل. فلقد عاش النورسي مطارّدًا، مضطهدًا، منفياً، مسجونًا، واقفًا أمام المحاكم العسكرية يواجه تهمة الإخلال بالأمن العام، ولم يكن يخل بالأمن العام ولا بالأمن الخاص، ولكنه كان ينشر دعوته الصادقة بالحكمة وبالحسنى، وبالوعي السليم، وبالفهم العميق لطبيعة المعركة الشرسة التي كان يخوضها.

وتلك هي الأفكار التي تصدّى الأستاذ محمد فتح الله كولن لتنفيذها

^(١٤٩) سيرة ذاتية، سعيد النورسي، دار النيل، القاهرة ٢٠٠٨، ص: ١١١.

^(١٥٠) صيقل الإسلام، سعيد النورسي، دار النيل، القاهرة ٢٠٠٩، ص: ٤٩٤.

ونذر حياته لها، دون تدبير مسبق مع صاحبها؛ فهو لم يلتق به كما أسلفت، ودون استناد إلى هيئة سياسية تدعمه أو تؤازره، وإنما باعتماد على الذات، بعد الاعتماد على الله سبحانه وتعالى، وبالصدق مع الله أولاً وقبل كل شيء، ثم مع النفس ومع الناس المحيطين به الذين يحبونه ويضعون ثقتهم فيه، وهم كثر لا حصر لهم.

كنت أحمل معي في زيارتي لمحافظة قونية التركية كتاب "المنهوي العربي النوري"، وهو المجلد السادس من "كليات رسائل النور" للأستاذ بديع الزمان سعيد النورسي، راجعه وحقّقه الأستاذ إحسان قاسم الصالحي^(١٥١). فقرأت في المقدمة الضافية التي كتبها الأستاذ محمد فتح الله كولن تحليلاً معمّقا مثيراً، مفصلاً للمدرسة الإيمانية الفكرية التي أسسها النورسي، والتي منها استفادت هذه الحركة التعليمية الواسعة التي تبهر الأنظار وتخلب الألباب. كتب كولن يقول: "لو أن بديع الزمان حظي بدعم بضع مئات من المثقفين وهو ينشر رسائله في أرجاء البلاد، ووجد منهم سنداً لأفكاره، فلربما كنّا من أغنى الأمم وأكثرها مدنية، ومن أقدرها على حلّ المشاكل التي تعرض لها، ولكنّا دخلنا المرحلة الحالية منذ ذلك الوقت، أي منذ بداية القرن العشرين، ولما جابهتنا المشاكل الحالية العديدة. ومع كل هذا فنحن نحمل أملاً كبيراً، لأننا نرى أن الذين ينظرون إلى أمّتنا وكأنها فقدت كل جذورها المعنوية، هم على خطأ كبير. صحيح أننا تأخّرنا مثل غيرنا من الأمم الأخرى وضعفنا، فليس في وسع أحد إنكار هذا، ولكن ليس في وسع أحد أيضاً أن ينفي قدرتنا على

(١٥١) المنهوي العربي النوري، بديع الزمان سعيد النورسي، دار النيل، القاهرة ٢٠٠٩.

النهوض ومتابعة التقدم مرة ثانية، فقد بدت أنوار اليقظة والانتباه تلتمع في أرواحنا كأمة بدلاً من روح الكسل والخمود، إذ بدأ دفء الحياة ونبض النشاط والحيوية يتسلل إلى أرواحنا التي كانت قد ضعفت نتيجة الميل إلى الكسل والإخلاق إلى الأرض.. إذن فلا شك أن أيام الربيع المشرقة الخضراء على الأبواب"^(١٥٢).

إن هذا الكلام الدقيق الذي ينبض بالصدق وبحرارة الإيمان والحماسة للعمل وبالتفاؤل، يستشف منه أن حركة الأستاذ فتح الله كولن المبدعة هي الامتداد الطبيعي لدعوة بديع الزمان سعيد النورسي، إذ نقلتها من طور إلى آخر، وبثت فيها روح العصر، وذلك من خلال شبكة واسعة من التعليم الجيد، تتضافر من أجل إنشائها جهود طائفة مؤمنة بأفكاره من التجار المخلصين والقادرين الأوفياء الذين ينفقون أموالهم بغية نيل رضا الله ثم تحقيق التقدم لأبناء شعبهم في تجربة نادرة غير مسبوق لا نعرفها ولا عهد لنا بها نحن العرب في بلداننا على كثرة الأغنياء القادرين منا.

وأشهد أن أنوار اليقظة والانتباه التي أشار إليها كولن في المقدمة المتميزة التي كتبها لكتاب الأستاذ سعيد النورسي، هي التي تشع اليوم من فوق المئات من المؤسسات التعليمية والثقافية والأكاديمية والإعلامية التي أنشأها كولن لـ"النهوض ومتابعة التقدم مرة ثانية". أما "أيام الربيع المشرقة الخضراء على الأبواب"، فهي أيام الربيع الحقيقي، ربيع التقدم العلمي والرقى الثقافي والازدهار الاجتماعي والنمو الاقتصادي الذي فاق كل المعدلات، لا الربيع الوهمي الافتراضي الخادع المشكوك في أمره

^(١٥٢) المشنوي العربي النوري، مقدمة الكتاب (للأستاذ فتح الله كولن)، ص: ١٣.

الذي زعم بعض العرب أنه المنقذ من الاستبداد والفساد والتراجع، فإذا الأيام تكشف أن الاستبداد زاد، وأن الفساد تضاعف، وأن التراجع ماضٍ في التفاقم، وأن العرب يقفون أمام أبواب المجهول.. نسأل الله اللطف. لقد رأيت في مدينة قونية حركة تعليمية ثقافية تثبت أن تركيا في نهوض حقيقي، وأنها آخذة سبيلها إلى التقدم الحقيقي. فمن خلال "الأكاديمية القرآنية" وعدد لافٍ للانتباه من المدارس والمعاهد العليا ومساكن الطلاب والطالبات والفرص المواتية المتاحة لهم للدراسة المتفوقة وللتعليم الجيد الراقى، من خلال ذلك علمتُ أن الأستاذ فتح الله كولن عرف طريقه، وأن ما كتبه عن الأستاذ النورسي في المقدمة المشار إليها، هو برنامج عملٍ وطنيٍّ متكاملٍ من أجل النهوض الحضاري والتقدم الاقتصادي وإعادة بناء الإنسان التركي من أجل صناعة المستقبل. إن هذه الحركة النهضوية الفاعلة المبدعة المؤثرة المنتجة التي يراها بحكمةٍ بالغة الأستاذ فتح الله كولن تعمّ جميع المدن التركية كما أسلفت. وإن ما شاهدته في قونية ليس إلا مثلاً واحداً يدل على خصوصية هذه الحركة التي تجعل من التعليم الجيد الراقى والمتفوق سبيلاً إلى النهوض والتقدم في المجالات كافة.

وذلك هو سرّ تفوّق الجامعات التركية على غيرها من الجامعات في البلدان العربية والإسلامية الذي يتطلب منا أن نقف عليه، وندرسه للاستفادة من هذه التجربة الرائدة إذا أردنا حقاً أن نصلح تعليمنا العالي، وأن نسلك سبيلنا نحو النهوض الحضاري والتقدم الاقتصادي والرفقي العلمي والازدهار الثقافي.

لما عدتُ إلى تصنيف جامعات العالم لسنة (٢٠١٣-٢٠١٤م) بعد

زيارتي لـ"قونية"، تخفف عني الشعور بالأسى والحزن، وامتلاّت نفسي
ارتياحاً واطمئنناً، لما وقفت عليه في تركيا من نهضة تعليمية عالية
المستوى، ومن تقدم مشهود تشهده الجامعات التي يزيد عددها عن مائة
وستين جامعة منها أكثر من سبعين جامعة تابعة للقطاع الخاص في بلد
تعداد سكانه خمسة وسبعين (٧٥) مليون نسمة.





فتح الله كولن.. المفكر وداعية الحوار والسلام الذي يواجه العاصفة

محمد فتح الله كولن مؤلف الكتابين "النور الخالد: محمد ﷺ مفخرة الإنسانية" ^(١٥٣) و"التلال الزمردية: نحو حياة القلب والروح" ^(١٥٤) اللذين بلغ فيهما الذروة في الإبداع والإشراق والإقناع، ربما تختلف صورته عنه في الحوار الذي أجرته معه "بي بي سي" ^(١٥٥) البريطانية، ونشرت وقائعه في موقع "الملف التركي" ^(١٥٦) على الإنترنت. كما أن محمد فتح الله كولن مؤلف الكتابين "ترانيم روح وأشجان قلب" ^(١٥٧) و"الموازين، أو أضواء على الطريق" ^(١٥٨) هو غيره في الحوار الذي أجرته معه صحيفة "وول ستريت" ^(١٥٩) الأمريكية. في هذه الكتب الأربعة، وفي غيرها من مؤلفاته، تطالعنا صورة المفكر المنظر المصلح داعية الحوار والسلام باني النهضة ورافع قواعد الانتعاش الروحي والعودة إلى الجذور والأوبة إلى

^(١٥٣) النور الخالد: محمد ﷺ مفخرة الإنسانية، فتح الله كولن، دار النيل، القاهرة ٢٠٠٦.

^(١٥٤) التلال الزمردية: نحو حياة القلب والروح-١، فتح الله كولن، دار النيل، القاهرة ٢٠١٠.

^(١٥٥) قناة "بي بي سي"، ٢٥ يناير ٢٠١٤.

^(١٥٦) <http://www.almelafalturki.com>

^(١٥٧) ترانيم روح وأشجان قلب، فتح الله كولن، دار النيل، القاهرة ٢٠٠٦.

^(١٥٨) الموازين أو أضواء على الطريق، فتح الله كولن، دار النيل، القاهرة ٢٠٠٦.

^(١٥٩) جريدة "وول ستريت"، ٢٠ يناير ٢٠١٤.

الذات. كما تتجلى للقارئ المتمعن في هذه الكتب، صورة الكاتب المبدع والشاعر المرفه الإحساس والمثقف الموسوعي الجامع بين الأصالة الحامية للذات وبين المعاصرة المنفتحة على العصر. بينما يبدو فتح الله كولن في حوارهِ مع "بي بي سي" و"وول ستريت" مفكرًا، قائد حركة، حادي ركب، رائد نهضة، منفتحًا على الدنيا، خائضًا في الشؤون السياسية على المستويين الوطني التركي والدولي الإنساني، معارضًا حكيمًا لبعض السياسات التي ينهاجها الحزب الحاكم في تركيا، على نحو غير معهود في المعارضين السياسيين للاختيارات السياسية والاجتماعية التي تعتمدها حكومات بلدانهم؛ فهو هنا في هذين الحوارين، معارض من طراز متميز، رفيع المستوى، راقٍ الفكر، حصيف العقل، يعرف كيف يختار مفرداته بدقة، فلا يطيش له سهم ولا يجمع به فرس، كما تقول العرب.

هل هذا تناقض؟ هل هذا ظهور بمظهرين؟ هل هذا كيل بمكيالين؟ أستبعد شخصيًا أن يكون مؤلف "النور الخالد" و"التلال الزمردية" وغيرهما من المؤلفات الراقية، يتناقض في أقواله، وفي أفكاره، وفي مواقفه. أستبعد ذلك تمامًا وعلى وجه الإطلاق، استنادًا إلى ثقتي المطلقة في هذا المفكر المجدّد الجسور الذي قرأت طائفة من كتبه، والذي أواظب على قراءة مقالاته الافتتاحية التي ينشرها في مجلة "حراء" التي تصدر من إسطنبول وأتابعها بانتظام، وقرأت سيرة حياته المبهرة التي كتبها المرحوم الدكتور فريد الأنصاري^(١٦٠) وقرأت كتبًا أخرى عنه. ولكن هذا هو ما يمكن أن نسّميه "تكاملًا نظريًا" أو لنقل "ترابطًا نظريًا" بين

^(١٦٠) عودة الفرسان: سيرة فتح الله كولن، فريد الأنصاري، دار النيل، القاهرة ٢٠١٠.

المفكر المنظر الفيلسوف الشاعر المبدع، وبين القائد الفكري والزعيم الروحي وصاحب الدعوة وربّ المشروع والراعي للنهضة في بلده وفي خارج بلده، بقدر كبير من التفتح والوعي والرشد والحكمة والإحساس العميق بالمسؤولية. ذلك أن فتح الله كولن لا يعزل نفسه عن مجرى الحياة لائذًا بذاته يطلب الخلاص لها، ولكنه يعيش عصره، ويمدّ جسوره إلى العالم من حوله، ويحيا مع أهله في الوطن ويشاركهم همومهم وآمالهم وآلامهم، على الرغم من البعد الجغرافي، ويندمج في أحداث العصر ويتفاعل مع قضايا الساعة، ويتابع، ويراقب، ويرصد بعقل راجح التطورات التي تحدث، ويوجّه بمحبة فياضة أنصاره ومحبيه وتلامذته من كل الفئات والمستويات وفي مختلف المواقع، نحو إعلاء صرح الروح، وتركية النفس، وإقامة البناء النهضوي، وإنجاز التغيير الذي يحقق التقدم المادي والرقى الاجتماعي والرخاء الاقتصادي للمجتمع. وهذه الصورة للمفكر ولزعيم الحركة ولقائد معركة البناء الحضاري، غير معهودة في المجتمعات العربية، ولذلك يبدو الأمر وكأن ثمة تناقضًا، أو تضاربًا، أو اختلافًا بين الصورة والأصل.

لقد وجّهت سهام الاتهام من الحزب الحاكم في تركيا إلى الأستاذ فتح الله كولن للنيل منه ولم تنقطع حتى الآن، فقيل إنه يخدم مصالح الولايات المتحدة الأمريكية وإسرائيل من خلال الموقف الذي اتخذه من القضية التي باتت تعرف بـ"ماوي مَرْمَرَة". وفي ردّه على "بي بي سي" قال: "أما إظهار الحركة -حركة خدمة- كأنها موالية لإسرائيل، وكأنها تفضّل إسرائيل على أمّتها، فلا يمكن أن يأتوا بشيء يدلّ على ذلك. ولكنهم يُسندون ادعاءاتهم إلى سفينة "ماوي مَرْمَرَة". فعقب حوار أجري

معني سألوني كما تسألون الآن: ما تقيّمكم للموضوع؟ قلت: حبذا لو استخدمت الدبلوماسية إلى حدّها الأخير ولم يُلجأ إلى العنف. لأن ذلك سيؤدّي إلى مشكلات اجتماعية ومضاعفات أخرى. لا أدري كيف رفعت الجريدة كلماتي إلى المانشيت. فكانت التفسيرات في تركيا مختلفة، أي كأنني وقفت إلى جانب آخرين ضد إخواننا وإنساننا. ولكن لا، إنما أبديت قناعاتي تلك حتى لا تحدث مشكلات أخرى. ولو حدث الشيء نفسه اليوم لأبديت الملاحظات نفسها. في رأيي ينبغي أن تستخدم الدبلوماسية حتى النهاية، وينبغي أن لا يُدفع الناس إلى الجبهة لتسفك دماؤهم وتزهق أرواحهم. هذا ما أردت أن أقوله حينئذ، وأعتقد أن إلصاق تلك التهمة مرتبط بموقفنا ذاك" (١٦١).

واتهم كولن من طرف قادة الحزب الحاكم في بلاده أيضاً، ولا يزالون يتهمونّه، بأنه ينحاز إلى الإبقاء على الأزمة الكردية ويعارض السعي لإيجاد تسوية لها. ولكنه ردّ على سؤال من "بي بي سي" حول هذه المسألة، فقال: "يمكن التفاوض مع حزب العمال الكردستاني، لا نرى في ذلك بأساً، لكن بشرط الحفاظ على مكانة الدولة ووقارها. فقد قالوا عن "عبد الله أوجلان" قاتل الأطفال، وإرهابي، ثم لما اعتقلته الدولة اعتقلته بوصفه إرهابياً. وأتت به إلى تركيا. ومحاكم تلك الأيام حكمت عليه بالسجن. ولم تكن الحكومة الحالية موجودة آنذاك. الحكومة السابقة سجنته. نحن لم يكن لدينا تحركات ضدهم. ولكن هؤلاء يتصرفون ضدنا، لا سيما في هذه الأيام. والحكومة الحالية في تركيا أعتقد أنها

(١٦١) قناة "بي بي سي"، ٢٥ يناير ٢٠١٤م؛ وانظر: موقع "الملف التركي".

لكي تضمن مستقبلها في المنطقة، تحاول أن تستدرج أبناء المنطقة إلى جانبها، فتظهر تعاطفًا وتعاونًا معهم، وتسعى إلى أن يدفع الفاتورة ما سمّوه "الجماعة" أو "الجامعة" أو "الحركة". أنا لم أذل بأيّ تصريح في هذا الأمر، لكنهم أعلنوه إرهابيًا في وقت ما، والغريب أنهم لجأوا إلى تشويه سمعتنا وروّجوا أننا ضدّ عملية السلام. ولكن مقاربتنا لحل المسألة كانت مختلفة، فنحن ارتأينا أن يكون الحلّ من خلال التربية والتعليم وتأسيس روح التوافق والاتفاق والاستثمارات الاقتصادية من أجل إزالة الفقر في المنطقة. وسارت الأنشطة -التي تقوم بها جماعة الخدمة- في ذلك الاتجاه بالفعل^(١٦٢).

كما وجّه إلى كولن الاتهام بأنه هو من حرك إشهار قضية الفساد ضد الحكومة. فقال في ردّه على (بي بي سي): "ليس من الصحيح التسليم بأن جميع من تعرضوا للتصفية، ومن نقلوا إلى مواقع أخرى، هم من "الخدمة". أحسب أن بين هؤلاء الرجال يساريين وديمقراطيين ووطنيين وقوميين. وليس بمقدورنا أن نرفع إعلانات للناس نقول لهم فيها "حذار ثم حذار.. إياكم أن تتعاطفوا معنا، إياكم أن تحبّوا خدمتنا وحركتنا". وكما قلت من قبل، لا أعرف واحدًا في الألف من هؤلاء الذين شتّوهم في الشرق والغرب. ولا أبالغ في ذلك، لأن الله سيحاسبني على ما أقول"^(١٦٣).

ويُتهم كولن بأن جماعته تعادي العلويين (النُصيريين) في تركيا. ولكنه ردّ على سؤال في حوارهِ مع "بي بي سي" حول الموقف الذي تتخذه

^(١٦٢) قناة "بي بي سي"، ٢٥ يناير ٢٠١٤؛ وانظر: موقع "الملف التركي".

^(١٦٣) قناة "بي بي سي"، ٢٥ يناير ٢٠١٤؛ وانظر: موقع "الملف التركي".

الجماعة من تلك الطائفة فقال: "أعتقد أنه ليس كلّ العلويين يفكرون كذلك [كان السؤال عن التوجّس السائد في أوساط الطائفة من التعرض لموجة قوية من ذوبان الهوية]. بل يبدي بعضهم تقديره لمبادرة مشروع "المسجد مع دار الجمع" التي أطلقتها "الخدمة"، لا سيما بعض العلويين المعروفين في تركيا، مثل البروفيسور عز الدين دوغان. معرفتنا تعود إلى سنوات عديدة، والتقينا مرارًا. ذهبْتُ إلى بيته لزيارته. وهو كذلك جاء لزيارتي. لقد آمنا بأن هذه المبادرة مهمّة جدًّا لتأسيس الوحدة والتأليف بيننا وبين إخواننا العلويين. فالعلويون في تركيا يحترمون تقاليدنا. كما أن لهم مراسم وطقوسًا خاصة بهم تشبه مراسم "السماع" لدى مولانا جلال الدين الرومي. وينبغي أن لا ننظر إلى هذه الفروق كأنها أسباب للنزاع، بل ينبغي احترامها" (١٦٤).

ويُتهم فتح الله كولن دومًا بأن الجماعة قد اخترقت سلكي الشرطة والقضاء. وحول سؤال من "بي بي سي" عن الأسباب التي تجعل حركة الخدمة تشجع بشكل قوي تلاميذها على ولوج هذين السلكين، أجاب بقوله: "دعونا أولاً نصحح طرح السؤال. إنني أتحدث فقط عن دعوتي الخاصة التي وجهتها للشعب التركي بشكل عام. لقد اعتقدتُ دائمًا أن التعليم هو أفضل وسيلة لتنشئة الأفراد وبناء قاعدة صلبة للمجتمع. يبدأ كل مشكل اجتماعي مع الفرد، ويمكن حله على المدى الطويل على مستوى الفرد. أما الحلول التي تعتمد على المنطق التنظيمي، أو المؤسّساتي، أو السياسي، فمصيرها يكون دائمًا الفشل، خصوصًا إذا أهملت (هذه

(١٦٤) قناة "بي بي سي"، ٢٥ يناير ٢٠١٤؛ وانظر: موقع "الملف التركي".

الحلول) الفرد. ولذلك كانت دعوتي في الأول والآخر للتعليم. وهذا ما شجّع كثيرًا من الناس الذين اتفقوا مع أفكاري على إنشاء مؤسسات تعليمية مختلفة. فكانت هناك بيوت الطلبة، ومراكز التحضير للامتحانات، ومدارس خاصة، ومراكز دعم مجانية. وقد مكّنت هذه المؤسسات شرائح مجتمعية واسعة من الحصول على تعليم رفيع الجودة، الشيء الذي كان -ولحدّ الآن- متوفرًا فقط لقلّة محظوظة. لقد شجّعتُ الشعب التركيّ على أن يمثل في جميع أوجه مجتمعه وفي مختلف مؤسسات بلده، لأنه من المهم جدًا أن تعكس هذه المؤسسات تنوع المجتمع. لكن اختيار المسار المهني يكون بيد الطلاب وأولياء أمورهم، وقد تؤثر بعض العوامل كفرص العمل المتاحة أو فرص الترقّي المهني على اختياراتهم. ثم إنني لست متأكدًا من مدى تأثير دعوتي الخاصة للتعليم على اختيارات هؤلاء الطلبة. كما أنه ليس لديّ تقييم دقيق حول الاختيارات المهنية التي اختارها خريجو مدارس "الخدمة". ولكن على عكس ما قد يتصوّر البعض، فالملاحظ تاريخيًا وعمليًا، أن التخرج من إحدى مدارس الخدمة كان يعتبر سببًا محتملًا للتمييز السلبي للالتحاق بالمجالات التي ذكرت (الشرطة والقضاء)..^(١٦٥).

وفي هذين الحوارين مع (بي بي سي) و(وول ستريت)، أجاب الأستاذ فتح الله كولن عن أسئلة كثيرة، فألقى الضوء على الوضع العام في تركيا، وفضح جوانب من الخلل السائد في بلاده، ولكنه لم يمس (غريمه) رجب طيب أردوغان رئيس الوزراء التركي بكلمة نابية. ولكنه أبان عن أفكار

^(١٦٥) قناة "بي بي سي"، ٢٥ يناير ٢٠١٤؛ وانظر: موقع "الملف التركي".

[فتح الله كولن..المفكر وداعية الحوار والسلام الذي يواجه العاصفة] ————— ١٧٣

إصلاحية تجديدية وعن إرادة قوية للبناء الحضاري، في إطار التوافق والاتفاق والاحترام المتبادل للمبادئ الديمقراطية التي هي اليوم "قيم كونية" حسب تعبيره في حوار مع صحيفة "وول ستريت".

هذا المفكر المجدّد داعية الحوار والسلام الذي أصبح اسمه يفرض نفسه في تركيا وفي غيرها، يقف اليوم في ساحة الصراع بين الحق والباطل، يواجه العاصفة برباطة جأش، وجسارة قلب، وصلابة موقف، مما يجعله شخصية جديرة بمراجعة أفكاره وتحليل مواقفه ومتابعة أخباره.



كتب ودراسات حول فكر الأستاذ فتح الله كولن

١. مستقبل الإصلاح في العالم الإسلامي.. خبرات مقارنة مع حركة فتح الله كولن التركية، مؤتمر، دار النيل، القاهرة ٢٠١٠م.
٢. البراديم كولن، فتح الله كولن ومشروع الخدمة، على ضوء نموذج الرشد، د. محمد باباعمي، دار النيل، القاهرة ٢٠١١م.
٣. أرباب المستوى.. حضور معرفي في فكر الأستاذ فتح الله كولن، د. محمد باباعمي، دار النيل، القاهرة ٢٠١٢م.
٤. ذي قربتي.. مقالات وخواطر وقصص من واقع الخدمة، د. محمد باباعمي، دار النيل، القاهرة ٢٠١٣م.
٥. الزمن والوقت.. نصوص ومفاهيم مؤسسة على الرؤية الكونية لفكر الأستاذ فتح الله كولن، د. محمد باباعمي، دار النيل، القاهرة ٢٠١٣م.
٦. الانبعاث الحضاري في فكر فتح الله كولن، أ.د. سليمان عشراي، دار النيل، القاهرة ٢٠١٢م.
٧. هندسة الحضارة.. تجليات العمران في فكر فتح الله كولن، أ.د. سليمان عشراي، دار النيل، القاهرة ٢٠١٢م.
٨. عبقرية فتح الله كولن بين قوارب الحكمة وشواطئ الخدمة، أ.د. فؤاد البنا، دار النيل، القاهرة ٢٠١٢م.
٩. العروج الحضاري.. بين "مالك بن نبي" و"فتح الله كولن"، أ.د. فؤاد البنا، كتاب الأمة، قطر ٢٠١٣م.
١٠. الضاربون في الأرض، أديب إبراهيم الدباغ، دار النيل، القاهرة ٢٠١٢م.
١١. فتح الله كولن في شؤون وشجون، أديب إبراهيم الدباغ، دار النيل، القاهرة ٢٠١٣م.
١٢. نداء الروح.. رحلة في عالم الفرسان، د. مريم آيت أحمد، دار النيل، القاهرة ٢٠١٣م.

١٣. فتح الله كولن.. رائد النهضة في تركيا المعاصرة، أ.د. عبد الحليم عويس، دار النيل، القاهرة ٢٠١٣ م.
١٤. آفاق اليقينيات العلمية، من تجليات رؤى فتح الله كولن الاستشرافية، د. عبد الإله بن مصباح، دار النيل، القاهرة ٢٠١٣ م.
١٥. محاورات حضارية، حوارات نصية بين فتح الله كولن وفلاسفة الفكر الإنساني، أ.د. جيل كارول، دار النيل، القاهرة ٢٠١١ م.
١٦. فتح الله كولن.. جذوره الفكرية واستشرافاته الحضارية، محمد أنس أركنه، دار النيل، القاهرة ٢٠١٠ م.
١٧. فتح الله كولن.. قصة حياة ومسيرة فكر، أرطغرول حكمة، دار النيل، القاهرة ٢٠١٢ م.
١٨. عودة الفرسان.. سيرة محمد فتح الله كولن.. رائد الفرسان القادمين من وراء الغيب، أ.د. فريد الأنصاري، دار النيل، القاهرة ٢٠١٠ م.
١٩. أشواق النهضة والانبعاث.. قراءات في مشروع الأستاذ فتح الله كولن، د. محمد جكيب، دار النيل، القاهرة ٢٠١٣ م.
٢٠. السلام والتسامح في فكر فتح الله كولن، إشراف: أ.د. زكي ساري توبراك، دار النيل، ٢٠١٤ م.

